السنــة والقــرآن صنــوان لا يفتــرقــان

مجلة ▪ إسلامية ▪ ثقافية ▪ شهرية

تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية

التوحيد

العدد ٤٦٢ - السنة التاسعة والثلاثون - جمادى الآخرة ١٤٣١ هـ - الثمن ١٥٠ قرشا

ندوة التوحيد الأولى:

منزلة السنة في التشريع

التوتر الأسري عند الاختبارات

حكم بيع الثمار قبل النضج

وسطية الأمة الإسلامية

فاعلم أنه لا إله إلا الله

صاحبة الامتياز

جماعة أنصار السنة المحمدية

السنة التاسعة والثلاثون

العدد ٤٦٢ جمادى الآخرة ١٤٣١ هـ

■ رئيس مجلس الإدارة

د. عبدالله شاكر

■ المشرف العام

د. عبد العظيم بدوي

■ اللجنة العلمية

زكريا حسيني محمد

جمال عبدالرحمن

معاوية محمد هيكل

المركز العام

هاتف: ٢٣٩١٥٤٥٦ - ٢٣٩١٥٥٧٦

موقع المركز العام:

WWW.ELSONNA.COM

■ ثمن النسخة

مصر ١٥٠ قرشاً، السعودية ٦ ريالات، الإمارات ٦ دراهم، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي، الأردن ٥٠٠ فلس، قطر ٦ ريالات، عمان نصف ريال عماني، أمريكا ٢ دولار، أوروبا ٢ يورو

■ الاشتراك السنوي

١- في الداخل ٢٥ جنيهاً (بحوالة بريدية داخلية باسم مجلة التوحيد - على مكتب بريد عابدين).

٢- في الخارج ٢٠ دولاراً أو ٧٥ ريالاً سعودياً أو ما يعادلهما.

ترسل القيمة بحوالة أو بحوالة بنكية أو شيك على بنك فيصل الإسلامي - فرع القاهرة - باسم مجلة التوحيد - أنصار السنة (حساب رقم / ١٩١٥٩٠).

م. دار الجمهورية للصحافة

"السلام عليكم"

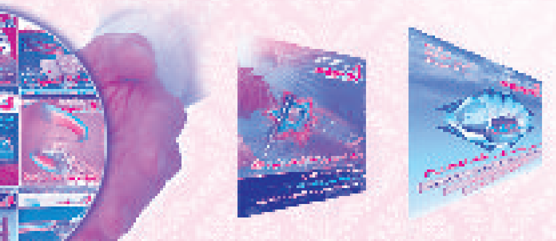
المعادلة السهلة الصعبة

في مصر يعيش ٨٠ مليون إنسان، يدخن منهم على الأقل ٣٠ مليونًا. يشربون الدخان بحدٍّ أدنى علبة واحدة للفرد بـ٣ جنيهات، ليكون إجمالي ما يُنفق على السيجارة الخبيثة (عود الهلاك) أكثر من ١٠٠ مليون جنيه يوميًا، بخلاف ما يُنفق على الخمور والبيرة، والحشيش والحبوب المخدرة المنتنة، مضافًا إلى ذلك ما يُبدَّد في مراقص ومسارح الأفراح المحزنة المخزية..

أكثر من ٢٥٠ مليونًا من الجنيهات يوميًا تُحرق في الحرام يا سادة يا كرام، بدون فائدة، ولا مصلحة عائدة، بل تجلب الأضرار، وغضب الجبار، وقد سمى الله تعالى من يبددون الأموال سفهاء، فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

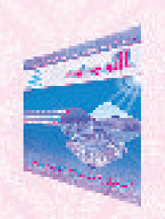
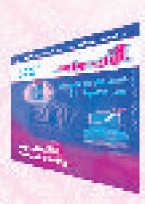
فأي عجب وأي استغراب إذا نظر الرب الرزاق، وهو يقسم الأرزاق، إلى قوم فاضت عندهم الأموال؛ فأنفقوها في الحرام لا في الحلال، فأغلى عليهم الأسعار، وسلط عليهم الجشعة من التجار!!

هل فهِم من لم يفهم، وعلِم من لم يعلم، سبب الهموم والغموم وغلاء الزيت واللحوم؟!!



مجلة التوحيد لا يستغني عنها مسلم

في هذا العدد


لا تخلو منها مكتبة ويحتاج إليها كل بيت

رئيس التحرير
جمال سعد حاتم
مدير التحرير الفني
حسين عطا القراط
سكرتير التحرير
مصطفى خليل أبو المعاطي
التنفيذ الفني
أحمد إبراهيم صوابي



تقدم للقارئ كرتونة كاملة تحتوي على ٢٨ مجلدًا من مجلدات مجلة التوحيد عن ٢٨ سنة كاملة ٢٠٠ جنيهًا للأفراد والهيئات والمؤسسات داخل مصر و٥٠ دولارًا خارج مصر شاملة سعر الشحن

البريد الإلكتروني
MGTAWHEED@HOTMAIL.COM
رئيس التحرير:
GSHATEM@HOTMAIL.COM
GSHATEM@YAHOO.COM
التوزيع والاشتراكات:
SEE2070@HOTMAIL.COM
موقع المجلة على الإنترنت:
WWW.ALTAWHEED.COM
التحرير
٨ شارع قولة - عابدين - القاهرة
ت: ٢٣٩٣٦٥١٧ - فاكس: ٢٣٩٣٠٦٦٢
قسم التوزيع والاشتراكات
ت: ٢٣٩١٥٤٥٦
التوزيع الداخلي:
مؤسسة الأهرام
وفروع أنصار السنة المحمدية



الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فإن الله تبارك وتعالى اصطفى هذه الأمة من بين سائر الأمم؛ وذلك لفضلها وخيريتها وتوسطها بين طرفي الإفراط والتفريط، وقد أثبت الله هذه الوسطية لهذه الأمة في كتابه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ومعنى قوله: «وسطًا» أي: عدولاً خيارًا، وقد فسَّرها بذلك النبي ﷺ؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بنوح يوم القيامة فيُقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتُسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. [البخاري ٧٣٤٩].

والمعنى: أن هذه الأمة أهل توسط بين الأمم، فلم يغلوا غلو النصارى، ولم يجفوا جفاء اليهود. قال الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية: «وأرى أن الله -تعالى ذكره- إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك؛ إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها، وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط: العدل، وذلك معنى الخيار؛ لأن الخيار من الناس عدولهم» [تفسير الطبري ٣ / ١٤٢].

وإن المتأمل في معتقد هذه الأمة وعباداتها ومعاملاتها ليدرك بوضوح أن التوسط والاعتدال أحد الخصائص المهمة التي تميزت بها هذه الأمة، ونالت بسببها شرف الشهادة على غيرها، فهي وسط بين الأمم، آخذة بزمام الاعتدال والتوازن، بعيدة عن طرفي الإفراط والغلو، والتفريط والتقصير؛ إذ كلاهما مذموم غير محمود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وقد خص الله تعالى محمدًا ﷺ بخصائص ميزه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعة ومنهاجًا، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين، كما جعل

التوسط والاعتدال أحد الخصائص المهمة التي تميزت بها هذه الأمة، ونالت بسببها شرف الشهادة على غيرها، فهي وسط بين الأمم

أمته خير أمة أخرجت للناس، فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الأجناس، هداهم الله بكتابه ورسوله ﷺ لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم، وجعلهم وسطًا عدلاً خيارًا، فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهي والحلال والحرام». [الجواب الصحيح ١ / ٦٩].

مظاهر وسطية أمة الإسلام

ومن أبرز مظاهر وسطية هذه الأمة بين الأمم:

وسطيتها في توحيد الله وصفاته: فهي وسط بين اليهود والنصارى، فاليهود اتخذوا الأنداد لله وعبدوا الأصنام من دونه، وكان هذا متأصلاً فيهم، فبعد أن نجاهم الله تعالى من عدوهم فرعون وجاوز بهم البحر، وأغرق عدوهم، ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم مثلها، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وهذا يدل على كفرهم وشركهم بربهم، وقد قالوا ما قالوه بعد أن رأوا شيئًا من عظمة الله وآياته؛ ولما تركهم موسى عليه السلام وذهب يناجي ربه عبدوا العجل من دون الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، وقد ذكر الرازي في تفسيره أن هذه الآية تدل على أن هذه الأمة خير من أولئك وأكمل عقلاً وأزكى خاطراً منهم. [تفسير الرازي ٣ / ٧١].

وذلك لأنهم شاهدوا من الآيات ما يدفعهم إلى التوحيد دفعًا، ولكنهم خالفوا ووقعوا في الشرك، كما تطاول اليهود على ذات الرب تبارك وتعالى، وشبهوا الله الواحد بخلقه، ووصفوه بما لا يليق به - سبحانه - من صفات النقص والعجز والاحتياج، ويضيق المقام هنا عن ذكر مخازيهم في ذلك، وحسبي أن أشير إلى بعضها إشارة، ومن ذلك وصفهم ربهم - تعالى وتقدس - بالفقر، كما ذكر الله ذلك عنهم في قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقد توعدهم الله سبحانه على هذا القول الباطل بعد أن بيَّن أنه سمعه ولم يَخْفَ عليه؛ فقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾، وهذا وعيد شديد لهم، كما قالوا يد الله مغلولة، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقد ذكر ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكن يقولون بخيل، يعني: أمسك ما عنده، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وقد رد الله عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم.[تفسير ابن كثير ٢ / ٩٤].

كما وصفوا الله تعالى بأنه يحزن ويأسف على أفعاله، وقد جاء في سفر التكوين ما يلي: «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرِّيرٌ كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء؛ لأني حزنت أن عملتهم». [الإصحاح السادس. فقرة: ٥- ٦].

وهذا كلام كله جهل وضلال، ولا يليق برب الأرض والسماء.

وكم عندهم من طامات كثيرة في ذلك ومنها: المقالة الكفرية العظيمة التي ذكر فيها أن لله ابنًا -

ضل النصارى ضلالاً مبيناً في أسماء الله وصفاته؛ فقد شبهوا المخلوق بالخالق، وذهبوا إلى أن المسيح عليه السلام هو الله !!

تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا - قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقد جاء في سفر التكوين ما يلي: «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا». [سفر التكوين، إصحاح ٦، فقرة ١، ٢].

كما ضل النصارى ضلالاً مبينًا في أسماء الله وصفاته، فقد شبهوا المخلوق بالخالق، وأضفوا عليه من الصفات والخصائص ما لا يليق إلا بالله عز وجل، وقد ذهبوا إلى أن المسيح عليه السلام هو الله، كما ذكر الله عنهم ذلك في كتابه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

وتارة أخرى جعلوا المسيح عليه السلام ابنًا لله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا. وقد ذكر الله قولهم في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، كما ذهبوا أيضًا إلى أنه شريك لله وجزء من ثلاثة أجزاء يتكون منها الإله، قال الله عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، كما قالوا في مريم كلامًا باطلاً، فزعموا أنها أم الإله.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «وأما قولهم في مريم: فإنهم يقولون: إنها أم المسيح ابن الله ووالدته في الحقيقة..، وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها، وابنها عن يمينه، والنصارى يدعونها، ويسألونها سعة الرزق، وصحة البدن، وطول العمر، ومغفرة الذنوب». [هداية الحيارى ص٢٦١].

وهذا طعن في الرب تبارك وتعالى وسبٌّ له، يقول ابن القيم عنهم: «إن النصارى ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة: أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءًا منه، والثاني: تنقص الخالق وسبّه ورميه بالعظائم؛ حيث زعموا أنه سبحانه وتعالى نزل عن العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة، وأقام تسعة أشهر، ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه، ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم، ولذلك جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبّوا الله عز وجل مسبة ما سبَّه إياها أحد من البشر». [إغاثة اللهفان ٢ / ٢٨٢- ٢٨٣].

وأما أمة الإسلام، أمة محمد عليه الصلاة والسلام فقد وصفوا الله بصفات الجلال والكمال، ونزّهوه عن صفات النقص كما نزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات، كما نزهوه عن الأنداد، واتخاذ الصاحبة والأولاد، كما قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «ومن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين، وجد اليهود والنصارى متقابلين، هؤلاء في طرف ضلال، وهؤلاء في طرف يقابله، والمسلمون هم الوسط، وذلك في التوحيد، والأنبياء، والشرائع، والحلال، والحرام، والأخلاق، وغير ذلك، فاليهود يشبّهون الخالق بالمخلوق في صفات النقص المختصة بالمخلوق التي يجب تنزيه الرب سبحانه عنها، والنصارى يشبهون المخلوق بالخالق في صفات الكمال المختصة بالخالق التي ليس له فيها مثل». [الجواب الصحيح ٣ / ١٠٠].

والحمد لله الذي هدانا للإسلام، ونجانا من أهل الزيغ والانحراف والضلال.



منزلة السنة في التشريع

أدار الندوة

رئيس التحرير - جمال سعد حاتم

شارك في الندوة:

١- د/ عبدالله شاكر - الرئيس العام.

٢- د/ عبدالعظيم بدوي - نائب الرئيس العام.

٣- الشيخ / أسامة سليمان - مدير إدارة المشروعات.

- إن الله عزوجل قد أحال بيان القرآن إلى سنة النبي ﷺ وقد تعهد الله عزوجل بحفظ القرآن الكريم فلابد أن يحفظ السنة التي تبين ألفاظ ومعاني القرآن الكريم !!

- حاجة القرآن إلى السنة أشد من حاجة السنة إلى القرآن لأن السنة هي المبينة للقرآن.

- لما علم أعداء الإسلام أهمية السنة في التشريع حرصوا كل الحرص على إبعاد المسلمين عن سنة نبيهم وأخذوا يثيرون حولها الشبهات.

- القرآن الكريم والسنة يدلان على أن أحاديث الآحاد حجة في العقائد والأحكام وقد درج الصحابة والتابعون وتابعوهم على العمل بهذه الأحاديث !!

- الدعوة اعتمدت على آحاد الأنبياء وكان آخرها على أيدي الآحاد، وهذه سنة الله تعالى في رسله !!

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، أما بعد:

إنَّ النبي ﷺ رغَّب المؤمنين في الحرص على طلب العلم النافع، ولزوم حلق الذكر، والعكوف على مجالس الوعظ والخير في المساجد بيوت رب العالمين ومأرز الصالحين وملتقى المؤمنين؛ لما فيها من إرشاد للحق، وتبيين للهدى، وإزالة للشكوك والريب، ودحض شبهات المبتدعة، ورد افتراءات الجهلة، فثبت عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «حِلَقُ الذِّكْرِ» [الترمذي ٣٥١٠ وصححه الألباني في الصحيحة ٢٥٦٢].

عَنْ أَبِي سعيد الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إِنَّ لِلَّه مَلاَئكَةً سَيَّاحِينَ في الأَرْضِ فُضُلاً عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ، فَإِذَا وَجَدُوا أَقْوَامًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى بُغْيَتِكُمْ؛ فَيَجِيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَيَّ شَيْءٍ تَرَكْتُمْ عِبَادِي يَصْنَعُونَ؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ وَيَذْكُرُونَكَ.... قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. فَيَقُولُونَ: إِنَّ فِيهِمْ فُلاَنًا الْخَطَّاءَ لَمْ يُرِدْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَهُمْ لِحَاجَةٍ. فَيَقُولُ هُمُ الْقَوْمُ لا يَشْقَى لَهُمْ جَلِيسٌ». [الترمذي ٣٦٠٠ وصححه الألباني].

والتماسًا لبركة هذين الحديثين وغيرهما، وحرصًا على نشر العلم، ونيل الأجر، وعمارة بيوت رب العالمين، عُقدت ندوة التوحيد في مجمع نور التوحيد بقرية الشين بالغربية في ليلة مباركة، وكان اللقاء دفاعًا عن السنة، واشتمل على ثلاثة محاور:

اختص المحور الأول بمناقشة منزلة السنة في التشريع، وحاضر في هذا المبحث فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله شاكر الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية.

ودار المحور الثاني عن الموقف من أحاديث الآحاد، والرد على منكريها، وناقش هذا المحور فضيلة الدكتور عبد العظيم بدوي نائب رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية والمشرف العام على مجلة التوحيد، وهو الذي استضاف وأشرف على إقامة هذه الندوة؛ فجزاه الله خيرًا.

واهتم المحور الثالث والأخير: بالرد على القرآنيين ومنكري السنة، وتحدث فيه الشيخ أسامة سليمان مدير إدارة المشروعات، وأحد دعاة أنصار السنة المحمدية.

مكانة السنة في التشريع

وحول مكانة السنة في التشريع وبيان أهميتها تحدث فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله شاكر؛ فحمد الله، ثم قال: إن المحور الذي سيدور حديثي حوله هو مكانة السنة من التشريع، وحتى أكون محددًا سأتكلم في ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: السنة وحي من الله تعالى

إن القرآن الكريم كلام الله عز وجل، لفظه ومعناه، والسنة أيضًا وحي من الله عز وجل، أوحى به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كانت ألفاظها من إنشاء النبي عليه الصلاة والسلام، والدليل على ذلك ما جاء في كتاب الله عز وجل من قوله جل في علاه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣- ٤].

وأيد ذلك النبي عليه الصلاة والسلام في حديثه عندما قال: «أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» [أبو داود وصححه الألباني]، وهذا ما فهمه أئمة السلف، فقال الإمام الشافعي رحمه الله: إن ما صح من خبر النبي عليه الصلاة والسلام فهو وحي أوحاه الله إليه، ولا يسع المسلم إذا وصله أن يخرج عنه؛ لأنه من وحي رب العالمين سبحانه جل في علاه، وهذه مسألة لا بد أن يتبينها المؤمن فكلام النبي عليه الصلاة والسلام لم يخرج منه هكذا ولم ينطق بكلمات لا تحتاج إليها الأمة، وإن كل ما نطق به صلى الله عليه وآله وسلم وما خرج من فمه فهو بأمر الله ووحي ربه سبحانه وتعالى.

إن الله تبارك وتعالى في كتابه أسند بيان القرآن إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ولا بد أن يكون القرآن الكريم موافقًا للكلام الذي يبينه منطق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا يدل على أن القرآن والسنة من لدن رب العالمين جل في علاه.

والعلة في ذلك أن الله عز وجل أحال بيان القرآن إلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وقد تعهد الله عز وجل نصًا بحفظ القرآن الكريم فلا بد أن يحفظ السنة التي تبين ألفاظ ومعاني القرآن الكريم، هذا إلى جانب قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وهناك دليل آخر وهو أن الله عز وجل بيَّن في كتابه أنه نَزَّل على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم شيئين الكتاب والحكمة، ففي سورة النساء، يقول الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ

فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وفي سورة الأحزاب يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، فذكر الله تبارك وتعالى أمرين، وقال الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه العظيم الرسالة: «سمعت من أرتضي من أهل العلم أن المراد بالحكمة هو سنة النبي ﷺ».

وقد قرن الله الكتاب والحكمة بالإنزال فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فدل ذلك على أن السنة كالقرآن وحي من عند رب العالمين جل في علاه.

العنصر الثاني: مكانة وحجية سنة رسول الله ﷺ

إن الله تبارك وتعالى أمرنا في كتابه بالرجوع والاحتكام إلى سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويضاف إلى هذا أن السنة تستقل أحيانًا بتشريع الأحكام، وهذا يدل على منزلة ومكانة السنة من الدين، فلا يمكن لنا أن نفهم القرآن إلا من خلال سنة رسول الله ﷺ.

والله عز وجل أمرنا في كتابه بطاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا يدل على أنه من كلامه، ويدل على أهمية اتباعه فيما جاء به من عند ربه صلوات الله وسلامه عليه، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وكل هذا يدل على أنه نبي مطاع ﷺ؛ يبين الكتاب الذي نزل عليه من عند ربه سبحانه وتعالى، ولا يستغني المسلم عن كلام رسول الله ﷺ.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فتكرار فعل الطاعة هنا يدل على أن النبي ﷺ تأتي في سنته أشياء ليست في القرآن الكريم.

وهذا يدل على مكانة سنة النبي ﷺ؛ ولذلك قال الإمام الشوكاني رحمه الله في إرشاد الفحول: «أجمع من يعتد به من أهل العلم أن سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تستقل بالأحكام»، ولذلك نحن نجد أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ذكروا هذا المعنى، وأدركوا هذا المغزى، وتلقفوا سنة النبي ﷺ وتعلموها وطبقوها؛ لأنهم يعلمون مكانة هذه السنة عند رب العالمين سبحانه وتعالى.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ» فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ: مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ؟ إلخ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَمَا لِيَ لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ. فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيْ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ. فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾. [متفق عليه، واللفظ لمسلم].

العنصر الثالث: نماذج يسيرة تبين أننا لا نستغني عن سنة النبي ﷺ

ننتقل بعد ذلك إلى النقطة الثالثة والأخيرة ونذكر بعض النماذج التي تبين للأمة بأنه لا يمكن لنا أن نستغني عن سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

هناك بعض النماذج والأمثلة في حياتنا العملية تدل على أهمية الكتاب والسنة، وأنه لا بد لنا من العمل بسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ذلك أن الله أمرنا في كتابه أن نقيم الصلاة وأن نؤتي الزكاة؛ فقال في آيات كثيرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] هكذا، ولم يبين لنا مواقيت الصلاة وأركانها، وعدد ركعاتها، وغير ذلك مما نقوم نحن به الآن، من الذي أعلمنا بأن صلاة الصبح يصليها العبد ركعتين، ويجهر فيهما بالقراءة، وأن الظهر أربع، وأن السنة أن يسر في الأربع بالقراءة، من أين تعلمنا ذلك؟ إنما أخذناه وتعلمناه عن رسول الله ﷺ، ولذلك كان لا بد أن نرجع إلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام لنتعلم منها تفسير وفهم القرآن الكريم، فالله تبارك وتعالى أنزل القرآن للعمل والتطبيق.

وأضاف النبي ﷺ على ما في كتاب الله فحرم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، وهذا يدل على أنه لا بد لنا من الأخذ والعمل بسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه لا يمكن لنا أن نفهم القرآن الكريم أو أن نطبق ما جاء في القرآن الكريم إلا من خلال سنة النبي عليه الصلاة والسلام، ونفهم أيضًا أنه لا ينبغي لنا أن ننحي جانبًا مما جاءنا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

والله عز وجل بيَّن أن الزاني والزانية يجلد كل واحد منهما مائة جلدة، وبينت السنة النبوية المطهرة أن الجلد إنما يقع على من لم يكن محصنًا أي غير المتزوج، أما المتزوج فحده الرجم، وبينت سنة النبي ﷺ ذلك.

والله عز وجل قال في كتابه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هكذا حكم القرآن الكريم ولكن من أين تُقطع يد السارق والسارقة؟ لم يبين لنا القرآن الكريم من أين تقطع، وما هو القدر الذي

تقطع فيه؟ وبيَّن ذلك النبي ﷺ.
والخلاصة: أن السنة المطهرة لها مكانة عظيمة في تشريع رب العالمين، وأنه لا يمكن للإنسان بحال من الأحوال أن ينحي السنة ويدعها.

حديث الآحاد وحجيته في العقائد والأحكام

ثم جاءت كلمة الدكتور عبد العظيم بدوى نائب الرئيس العام لجماعة أنصار السنة والمشرف العام على مجلة التوحيد بعنوان: حديث الآحاد وحجيته في العقائد والأحكام، وقد استفتح الدكتور عبد العظيم بمقولة بعض أهل العلم بأن: حاجة القرآن إلى السنة أشد من حاجة السنة إلى القرآن؛ لأن السنة هي المبينة للقرآن، فلما علم أعداء الإسلام أهمية السنة في التشريع حرصوا كل الحرص على إبعاد المسلمين عن سنة نبيهم ﷺ، وأخذوا يثيرون حولها الشبهات؛ حتى يترك المسلمون السنة، فإذا تركوا السنة ضيعوا القرآن؛ لأنه لا يمكن لنا أن نعمل بالقرآن بدون السنة.

ومن الشبهات الباطلة أن أحاديث الآحاد لا يُعمل بها في العقائد والأحكام؛ لأنها فردية، وذهب آخرون إلى تحكيم العقل في التصحيح والتضعيف؛ فقالوا: ما يقبله العقل فهو صحيح، وإن كان عند المحدثين ضعيفًا، وما يرفضه العقل فهو ضعيف ولو كان عند أهل الحديث صحيحًا، فحول هاتين الشبهتين يدور حديثنا، والله أسأل لي ولكم التوفيق والسداد.

تقسيم السنة والتعريف بحديث الآحاد

ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أن السنة من حيث عدد الرواة الذين نقلوها إلينا تنقسم قسمين: متواتر وآحاد، فالمتواتر ما رواه جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب عن مثله من أول السند إلى منتهاه، وما قل عدده عن عدد التواتر فهو آحاد.

والسنة المتواتر قليلة، أما أحاديث الآحاد فهي كثيرة جدًا، وقد درجت القرون الثلاثة المفضلة، قرن النبي ﷺ والصحابة والتابعين وتابعيهم درجوا على العمل بهذه السنة كلها، المتواتر منها والآحاد، ولم تثر قضية حديث الآحاد إلا بعد القرون الفاضلة؛ حينما ظهرت قرون البدع في المجتمع المسلم، وظهرت الفرق الضالة أهل الأهواء والبدع، ولاسيما المعتزلة منهم، من هنا ظهر الكلام في أحاديث الآحاد، وبدأ بعض الناس يردون حديث الآحاد، ويزعمون أنه ليس حجة في العقائد والأحكام.

ونحن نقول: إن الكتاب والسنة يدلان على أن أحاديث الآحاد حجة في العقائد والأحكام.

أولاً: قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] ولم يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالتبين والتثبت من الخبر إلا إذا رواه فاسق، ففهم من ذلك أنه إذا رواه عدل قُبِلَ خبره، ثم إن الله تبارك وتعالى قال متوعدًا الذين يكتمون ما تعلموا، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقال الله تعالى في سورة الأحزاب مخاطبًا نساء النبي ﷺ ورضي الله عنهن: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾، وقد استدل الإمام القرطبي رحمه الله بهاتين الآيتين على أن تبليغ العلم الذي تعلمه الإنسان من الكتاب والسنة واجب على الرجال والنساء، والنبي ﷺ كان يأمر أصحابه بالتبليغ كان يقول: «بلغوا عنى ولو آية» [البخاري ٣٤٦١]، وعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا؛ فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ». [أبو داود ٣٦٦٠ وصححه الألباني]، وكان إذا خطب في جمع قال: «فليبلغ الشاهد الغائب» [متفق عليه].

وتبليغ هذا الدين ونشره قام من أول ساعة على أحاديث الآحاد، تعلمون أن أول من أسلم من الرجال أبو بكر رضي الله عنه، أبو بكر حين أسلم انطلق داعيًا إلى الإسلام فصار يدعو الناس إلى الإسلام، وكانوا يقبلون منه ويدخلون في الإسلام، دون أن يقولوا: كيف؟ أنت رجل واحد كيف نصدقك وكيف نقبل قولك، وقد أرسل رسول الله مع الوفد الذي بايعه عند العقبة رجلاً واحدًا لينشر الدين، ويعلم العقيدة والأحكام، إنه مصعب بن عمير أول سفير بعثه رسول الله ﷺ إلى المدينة ليعلّمهم الدين، وبعد أن هاجر ﷺ وأخذت الأحكام تنزل بالحلال وكان الأمر ينزل من الله سبحانه وتعالى بالواجب فيبلغه الصحابة بعضهم بعضًا، وكان ينزل الأمر بالتحريم فيبلغه الصحابة بعضهم بعضًا ومن أمثلة ذلك:

كانوا يشربون الخمر حتى بعد الهجرة إلى المدينة فلما بعث رسول الله ﷺ مناديًا ينادي في طرقات المدينة ألا إن الخمر قد حرمت، ألا إن الخمر قد حرمت، وكان في بيت أبى طلحة الأنصاري ضيوف يشربون الخمر وهي حلال، وكان الساقي أنس بن مالك رضي الله عنه؛ فبينما هم يشربون، إذ سمعوا صوت المنادي في طرقات المدينة ألا إن الخمر قد حرمت، فقالوا بلا تردد ولا اعتراض على خبر شخص واحد يا أنس: أرق ما في يدك، اسكب يا أنس الذي معك لا نشربها بعدما حرمت؛ فقبلوا خبر الواحد رضي الله عنهم.

وكان في النساء تبرج وسفور فلما نزلت الآية بالأمر بالحجاب ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى

جُيُوبِهِنَّ﴾، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا». [البخاري ٤٧٥٨].

وكانوا يصلون إلى بيت المقدس، وكان النبي ﷺ يشتاق إلى أن يتحول إلى قبلة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ نزلت على رسول الله ﷺ، فاستقبل البيت الحرام..... فصلى معه رجل ثم انطلق إلى قباء؛ فوجدهم يصلون إلى القبلة الأولى لأنهم لم يعلموا بنزول الآية، فقال: أشهد أني صليت مع رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، فاستداروا وهم يصلون إلى الخلف، لم ينتظروا إلى أن ينتهوا من الصلاة ويقولوا: من أنت؟ أنت واحد، جئت تحولنا عن قبلة عشنا على استقبالها دهرًا، نحن لن نتحول عن القبلة حتى يأتي عشرون رجلاً يقولون: إن القبلة قد تحولت. لم يفعلوا ذلك؛ لأنهم تربوا على ذلك، تربوا على أن أحاديث الآحاد حجة بنفسها في العقائد والأحكام.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ؛ فَقَالَ: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ..» الحديث. [متفق عليه].

فقد قام معاذ بن جبل بتعليم أهل اليمن العقيدة والأحكام، وقبلوا من معاذ، واستجابوا له، ولم يقولوا كيف نقبل منك يا معاذ أن نغير ديننا وأنت رجل واحد؟!

وفي السنة التاسعة من الهجرة بعث النبي عليه الصلاة والسلام أمير الحج أبا بكر رضي الله عنه، وهو رجل واحد يحج بالمسلمين ويعلمهم المناسك، وبعث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ليقرأ على الناس سورة البراءة - سورة التوبة - ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ إلى آخره، ثم نادى لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان. [البخاري ٤١٠٥].

فالدعوة بدأت على أيدي الآحاد، وفي آخرها على أيدي الآحاد، وهذه سنة الله تعالى في رسله، فالله عز وجل أرسل إلى قوم نوح نوحًا فقط، وأرسل إلى قوم عاد هودًا فقط، وكان رسول واحد يأتي الأمة، رسول واحد يكفي لتبليغ الرسالة، ويؤيده الله تعالى بمعجزة تشهد له بأنه صادق في كونه رسول الله.

والخلاصة أن أحاديث الآحاد حجة بنفسها في العقائد والأحكام، دل على ذلك القرآن والسنة، وعلى ذلك ربى النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه؛ فلم يتوقفوا عن قبول خبر الواحد قط في قرن الصحابة وقرن التابعين وتابعي تابعيهم، حتى أطلت الفرق الضالة بقرونها، ونشأت هذه الناشئة ولاسيما المعتزلة فردوا العمل بأحاديث الآحاد والجمهور على قبوله ولو قلت الإجماع ما أخطأت بإذن الله عز وجل.

التصحيح والتضعيف بالعقل

أما الذين يصححون ويضعفون بعقولهم، فهم العقلانيون الذين قدموا العقل على النقل وجعلوا العقل حاكمًا على النقل؛ فقالوا: إذا جاء الخبر فوافق العقل واستحسنه فهو خبر مقبول صحيح، وإن كان عند أهل الحديث ضعيفًا، وإن جاء الخبر فرده العقل ولم يقبله فهو مردود، وإن كان عند أهل الحديث صحيحًا.

والرد على هذا السفه أن عقول الناس مختلفة، فإذا قلنا: إن العقل هو الذي يحكم على الحديث صحةً وضعفًا، فعقلي غير عقلك، غير عقل الثالث، فقد تجد مائة شخص عقولهم مختلفة، فقلما تجد حديثًا واحدًا تقبله عقول الناس كلهم، لأن كل واحد ستخرج له شبهة في الحديث فيرده، فهذا يرد حديثًا، وهذا يرد حديثًا، وهذا يرد حديثًا، فلا يبقى من السنة شيء، وتلك هي الغاية التي يسعون إليها.

ولا شك أن العقل نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى أنعم بها على الإنسان، وهو مناط التكليف، ولو أن إنسانًا فقد عقله لسقط عنه التكليف، فقد قال رسول الله ﷺ «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ» [ابن ماجه ٢٠٤١ وصححه الألباني]، والله سبحانه وتعالى أمرنا أن نعمل عقولنا، وأن نستخدمها في التعرف على ربنا سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]، ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فالعقل نعمة من نعم الله عز وجل التي نشكره عليها سبحانه، فالله سبحانه أمرنا أن نعمل عقولنا في التعرف على ما له علينا، وفيما يأمرنا به وفيما ينهانا عنه، وعلى العقل أن يحترم نفسه، وعلى العاقل أن يحترم نفسه، فلا يجوز أن يقدم العقل على النقل، ولا يجوز أن يحكم العقل في النقل.

والعقل ليس له مكان في التصحيح والتضعيف

إنما هذا إلى أهل التخصص من علماء الحديث الذين سخرهم الله تبارك وتعالى لخدمة السنة حتى يحفظها مصداقًا لقوله عز وجل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فالذكر يشمل القرآن والسنة، فالسنة محفوظة ومعرفة صحيحها وضعيفها والمقبول منها والمردود إنما مرده إلى العلماء المتخصصين، فإذا حكم العلماء المتخصصون على حديث بالصحة فهو صحيح وإن خالف عقولنا، مثل ما ثبت عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ، ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً وَالأُخْرَى شِفَاءً» [البخاري ٣٣٢٠]، يأتي واحد يقول لك: الإسلام دين نظافة، فهل يعقل أن يقول الرسول هذا، لا يصح عن الرسول، فقد حكَّم عقله.

إن الشريعة لا تأتي بما تحيله العقول، ولكنها قد تأتي بما تحتار في فهمه العقول، الشريعة تأتي بأشياء تفكر فيها ولا تعرف لها حلاً، فما موقفك أنت كعاقل مما تحتار العقول في فهمه، هل تتوقف حتى تفهم؟ لا، الواجب أن تعمل ما دام قد صح الخبر، ثم تفهم بعد ذلك، ولذلك قال عليّ رضي الله عنه: «لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ أَسْفَلُ الْخُفِّ أَوْلَى بِالْمَسْحِ مِنْ أَعْلاَهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ عَلَى ظَاهِرِ خُفَّيْهِ». [أبو داود ١٦٢ وصححه الألباني] فالعقل يقول: إن الواجب أن تمسح على باطن الخف؛ لأنه هو الذي يلامس الأرض – لكن الدين قال: امسح ظاهر الخف؛ إذًا فلنسمع.

وعمر رضي الله عنه الفاروق الملهم لما أراد أن يقبل الحجر الأسود؛ قال تلك الكلمة التي أطارها الله في الآفاق لتكون حجة على العقلانيين، فعنه أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ الأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لا تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ، وَلَوْلا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» [البخاري ١٥٩٧].

الرد على القرآنيين ومنكري السنة:

في المحور الثالث والأخير: والمعني بالرد على القرآنيين ومنكري السنة، تحدث فضيلة الشيخ أسامة سليمان؛ فقال: إن أعداء السنة في كل زمان ومكان درجوا على إنكار السنة، والطعن فيها، والزعم بأن القرآن مصدر كافٍ في التشريع، وهم شياطين في جثمان بشر، وقد حذر النبي ﷺ منهم؛ فعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ...». [أبو داود ٤٦٠٦ وصححه الألباني].

وهؤلاء إنما قصدوا بطعنهم في أصحاب النبي ﷺ وتنقصهم للسلف الصالح رد السنة ورفضها، لقد تيقظ السلف الصالح رضوان الله عليهم لخطورة الطعن في الصحابة وسبهم، وحذروا من الطاعنين ومقاصدهم؛ وذلك لعلمهم بما يؤدي إليه ذلك السب من لوازم باطلة تناقض أصول الدين، فقال بعضهم كلمات قليلة، لكنها جامعة، قال الإمام مالك رحمه الله عن هؤلاء الذين يسبون الصحابة: «إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي ﷺ، فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه، حتى يقال رجل سوء، ولو كان رجلاً صالحًا لكان أصحابه صالحين». [رسالة في سب الصحابة، عن الصارم المسلول ص٥٨٠].

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا رأيت رجلاً يذكر أحدًا من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام». [البداية والنهاية ٨ / ١٤٢، وانظر المسائل والرسائل المروية عن أحمد في العقيدة الأحمدية للأحمدي ٢ / ٣٦٣ – ٣٦٤].

وقال أبو زرعة الرازي رحمه الله: «فإذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة». [الكفاية للخطيب البغدادي ٩٧].

وقال الإمام أبو نعيم رحمه الله: «فلا يتتبع هفوات أصحاب رسول الله ﷺ وزللهم، ويحفظ عليهم ما يكون منهم حال الغضب والموجدة إلا مفتون القلب في دينه». [الإمامة لأبي نعيم ٣٤٤].

ثم رد الشيخ أسامة على شبهة بعض الجهلة أن السنة لم تدون وطعن في تدوينها، وقال الشيخ: إن النبي ﷺ استعمل الكتابة في تدوين ما ينزل من القرآن، واتخذ لذلك كُتاباً من الصحابة، فكان القرآن يكتب كله بين يدي رسول الله ﷺ على الرِّقاع والأضلاع والحجارة والسَّعَف (أغصان النخيل)، وكانت الآية من القرآن تنزل على رسول الله ﷺ فيأمر كاتب الوحي بكتابتها في موضع كذا من سورة كذا، واستمر الأمر على هذه الحال حتى وفاة النبي ﷺ فلم يقبض رسول الله ﷺ إلا والقرآن محفوظ مكتوب لا ينقصه إلا الجمع في مصحف واحد.

أما السنة فلم يكن شأنها كذلك حيث إنها لم تدون جميعها تدوينًا رسميًا في عهد النبي ﷺ كما دُون القرآن، ولم يأمر النبي ﷺ أصحابه بذلك.

– وقد ذكر العلماء أسباباً عديدة لعدم تدوين

السنة في العهد النبوي: منها أن النبي ﷺ عاش بين أصحابه بعد البعثة ثلاثاً وعشرين سنة، فكان تدوين كل كلماته وأقواله وأفعاله وكتابتها فيه من العسر والمشقة الشيء الكثير، لما يحتاجه ذلك من تفرغ كثير من الصحابة لهذا العمل الجليل، ونحن نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا جميعاً يحسنون الكتابة بل كان الكاتبون منهم أفراداً قلائل، وكان تركيز هؤلاء الكتبة من الصحابة على كتابة القرآن دون غيره من السنة حتى يؤدوه لمن بعدهم تاماً مضبوطاً لا يُنْقص منه حرف.

- ومن الأسباب أيضاً الخوف من حدوث اللبس عند عامة المسلمين، فيختلط القرآن بغيره من الحديث، وخصوصاً في تلك الفترة المبكرة التي لم يكتمل فيها نزول القرآن، وكان القرآن ينزل فيها مفرقاً حسب الوقائع والأحداث، إضافة إلى أن العرب كانوا أمة أمية، وكانوا يعتمدون على الذاكرة فيما يودون حفظه واستظهاره، ولذلك عُرفوا بقوة الذاكرة وسرعة الحفظ، وكان نزول القرآن مفرقاً على آيات وسور قصيرة أدعى للتفرغ لحفظه واستذكاره والاحتفاظ به في صدورهم، أما السنة فكانت كثيرة الوقائع متشعبة النواحي شاملة لأعمال الرسول وأقواله منذ بدء الرسالة إلى أن توفاه الله عز وجل، فلو دونت كما دون القرآن، للزم أن ينكبَّ الصحابة على حفظ السنة مع حفظ القرآن، وفيه من الحرج والمشقة ما فيه، فكان لا بد من توفرهم - في تلك الفترة - على كتاب الله حفظاً ودراسة وتفهماً.

- كل ذلك وغيره - مما توسع العلماء في بيانه - كان من أسرار عدم تدوين السنة في العهد النبوي، وبهذا نفهم سر النهي عن كتابتها في الحديث الوارد في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري عندما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه». وهذا لا يعني أبداً أن السنة لم يكتب منها شيء في عهد الرسول ﷺ، فقد وردت آثار صحيحة تدل على أنه قد وقع كتابة شيء من السنة في العصر النبوي، ولكن هذا التدوين والكتابة كان بصفة خاصة، ولم يكن عاماً بحيث تتداول هذه الكتب بين الناس، فقد أمر النبي ﷺ أصحابه في فتح مكة أن يكتبوا لأبي شاة، وكتب ﷺ كتباً إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام، كما ثبت أن بعض الصحابة كانت لهم صحف خاصة يدونون فيها بعض ما سمعوه من رسول الله ﷺ كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التي كان يسميها بالصادقة، وكانت عند علي رضي الله عنه صحيفة فيها أحكام الدية وفكاك الأسير، كما ثبت أن النبي ﷺ كتب لبعض أمرائه وعمَّاله كتباً حددَّ لهم فيها الأنصبة ومقادير الزكاة والجزية والديات، إلى غير ذلك من القضايا المتعددة التي تدل على وقوع الكتابة في عهده عليه الصلاة والسلام.

إذاً فقد توفي رسول الله ﷺ ولم تدون السنة تدويناً كاملاً كما دون القرآن، وكان الناس لا يزالون بخير، ولا تزال ملكاتهم قوية وحوافظهم قادرة على حفظ السنن وأدائها أداءً أميناً، وقد تتابع الخلفاء على ذلك، فلم يعرف عنهم أنهم دونوا السنن أو أمروا الناس بذلك، حتى جاء الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، فأمر بجمع الحديث لدواعٍ اقتضت ذلك، بعد حفظ الأمة لكتاب ربها، وأمنها عليه أن يشتبه بغيره من السنن.

ومن شبهاتهم في الاستغناء عن السنة قولهم: إن القرآن الكريم كافٍ في بيان قضايا الدين وأحكام الشريعة، وإن القرآن قد اشتمل على الدين كله، ما ترك شيئاً ولا فرط في شيء. ولهذا كان القرآن كافياً، ولم يكن ثمة حاجة لمصدر ثان للتشريع. فالسنة لا حاجة إليها، ولا مكان لها.. وقد استدلوا لشبهتهم هذه بما زعموه أدلة من القرآن المجيد. من ذلك قوله - سبحانه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. واستدلوا - كذلك - بقول الله - سبحانه - يصف القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١]، وكذلك استدلوا بالآيات التي وصف الله - تعالى - القرآن فيها بأنه «مبين» من مثل قول الله عز وجل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس:٦٩].

تفنيد الشبهة والرد عليها:

إن القول بهذه الشبهة يدل على جهل بالقرآن المجيد، وعدم فهم لآياته، بل يدل على سوء قصد لدى القائلين بها. فإن الأمة مجمعة على أن القرآن العظيم قد اشتمل الدين مجملاً في كثير من جوانبه وأحكامه، ومفصلاً في جوانب أخرى، وقد جاءت السنة النبوية المطهرة فبينت المجمل وفصلته، والنبي ﷺ وهو يبين ويفصل إنما ينفذ أمر الله تعالى ويؤدي ما وكله الله تعالى إليه من بيان القرآن المنزل على الخلق، تطبيقاً واستجابة لأمر الله عز وجل في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

فالقرآن المجيد قد اشتمل على قضايا الدين، وأصول الأحكام الشرعية، أما تفاصيل الشريعة وجزئياتها فقد فصل بعضها وأجمل جمهرتها، وإنما جاء المجمل في القرآن بناء على حكمة الله عز وجل التي اقتضت أن يتولى رسوله ﷺ تفصيل ذلك المجمل وبيانه.. وهذا هو ما قام عليه واقع الإسلام،

وأجمعت عليه أمته، ومن ثم فلا وزن لمن يقول بغير ذلك أو يعارضه، فلنحتكم وإياهم إلى عمود الدين الصلاة؛ أين في القرآن الكريم عدد الصلوات، ووقت كل صلاة ابتداء وانتهاء، وعدد ركعات كل صلاة، والسجدات في كل ركعة، وهيئاتها، وأركانها، وما يقرأ فيها، وواجباتها، وسننها، ونواقضها، إلى غير ذلك من أحكام لا يمكن أن تقام الصلاة بدونها؟ ومثل ذلك يقال في أحكام العبادات كافة، إن القرآن العظيم قد ورد فيه الأمر بالصلاة والزكاة والصيام والحج، فأين نجد منه الأنواع التي تخرج منها الزكاة، ومقدار كل نوع، وأين نجد أحكام الصيام ؟ وأين نجد مناسك الحج ؟ إن الله سبحانه قد وكل بيان ذلك إلى رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، إنما هو اللوح المحفوظ، وليس القرآن الكريم، وسياق الآية كاملة يرجح هذا، فالآية الكريمة كاملة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، فالآية تتحدث عن عظيم علم الله تعالى، وإحاطته بكل شيء في الوجود من دواب وطيور وغيرها، وقد شمل علم الله سبحانه كل شيء، وقدر ما يقع لكل منها، ثم إليه يحشر الكل. وذلك كقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]. فالكتاب الذي احتوى كل شيء كان أو كائن أو يكون إنما هو اللوح المحفوظ وعلى تفسير الكتاب بأنه القرآن الكريم، فقد قال المفسرون: إن معنى الآية أن الله تعالى قد ضمن القرآن الكريم كل ما يحتاج إليه المكلفون من أوامر ونواه، وعقائد وشرائع، وبشارة ونذارة.. إلى غير ذلك، وليس معنى ذلك أنه لا يحتاج إلى السنة المبينة له، فهو وحي، والسنة وحي، ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى.

ثم تحدث الشيخ أسامة سليمان عن أهمية الإسناد وعدم الانسياق خلف المبتدعة الذين يطعنون في الأسانيد، قال الإمام النووي رحمه الله: «ولا يتعلم إلا ممن اكتملت أهليته وظهرت ديانته وتحققت معرفته واشتهرت صيانته؛ فقد قال محمد ابن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف: «هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم». وقال الإمام مسلم رحمه الله في مقدمة صحيحه: «باب بيان أن الإسناد من الدين، وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة». وقال أيضًا رحمه الله: عن ابن سيرين قال: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد؛ فلما وقعت الفتنة قالوا لنا: سمُّوا لنا رجالكم؛ فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ عنهم حديثهم».

عن سفيان بن عيينة قال مسعر: «سمعت سعد بن إبراهيم يقول: لا يحدث عن رسول الله ﷺ إلا الثقات»، قال عبد الله بن المبارك: «الإسناد من الدين و لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»، وقال أيضًا: «بيننا وبين القوم القوائم» يعني الإسناد».

وقال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: «عن عقبة بن نافع قال لبنيه: «يا بَنِيَّ لا تقبلوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة»، وعن ابن معين قال: كان فيما أوصى به صهيب بنيه أن قال: يا بَنِيَّ، لا تقبلوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة».

وقال الإمام ابن أبي حاتم في كتابه الجرح و التعديل: «باب في الأخبار أنها من الدين و التحرز و التوقي فيها». ثم ساق أثر ابن سيرين، ثم أثر أنس بن مالك أنه دخلوا عليه في مرضه فقال: «اتقوا الله يا معشر الشباب انظروا ممن تأخذون هذه الأحاديث فإنها من دينكم»، وأثر بهز بن أسد أنه قال: «لو أن لرجل على رجل عشرة دراهم ثم جحده لم يستطع أخذها منه إلا بشاهدين عدلين فدين الله عز وجل أحق أن يؤخذ فيه بالعدول»، في الأثر: «دينك دينك إنما هو لحمك ودمك؛ فانظر عمن تأخذ خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا»، قال ابن سيرين: «كان في الزمن الأول الناس لا يسألون عن الإسناد حتى وقعت الفتنة؛ فلما وقعت الفتنة سألوا عن الإسناد ليحدث بحديث أهل السنة ويترك حديث أهل البدعة».

وهناك أحاديث كثيرة تحدث عنها بعض الجهلة والمبتدعة مثل حديث الذبابة وحديث أمرت أن أقاتل الناس، وحديث سحر النبي ﷺ، وحديث شق صدر النبي ﷺ، وحديث فقء موسى لعين ملك الموت، وهي أحاديث صحيحة، ولا بد من العلم والعودة إلى العلماء في دحض هذه الشبهات ورد هذه المفتريات، وكذا في الرد على بعض الشبهات على الرواة كأبي هريرة وغيره.

وأخيراً، الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الماء والهواء، ونسأل الله أن يحيينا على السنة والتمسك بها والعمل بها حتى نلقاه عليها، والحمد لله رب العالمين.



إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾
[يس: ٦٠- ٧٠].

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾: عهد الله وصيته إلى بني آدم، وهم في صلب أبيهم آدم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أنسيتم هذا العهد وقد جاءتكم الرسل فذكرتكم به؟!

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾، وعبادة الشيطان طاعته، واتباعه فيما يأمر به، وفيما ينهى عنه، والشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، ولا ينهى إلا عن كل خير أمر الله به.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وعداوته بيّنة ظاهرة من يوم أن أبى أن يسجد لأبيكم آدم، ومن يوم أن وسوس له حتى أخرجه من الجنة، وأزاله عما هو فيه من النعيم، فعداوة الشيطان ظاهرة بينة واضحة لا تحتاج إلى دليل، ولذلك كان من كلام الخليل إبراهيم -عليه السلام- لأبيه وهو يدعوه إلى الله: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [الأنبياء: ٤٤] لا تعبد الشيطان لأنك حين تعصي الرحمن إنما تطيع الشيطان، حين تعبد الأصنام والأوثان تعبدها بأمر الشيطان، فأنت في الحقيقة تعبد الشيطان وتطيعه.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ ولا تشركوا بعبادتي أحدًا، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فالصراط المستقيم يتمثل في عبادة الرحمن، وترك عبادة الشيطان، فكل من عبد الله وحده، ولم يعبد معه غيره، فهو على صراط مستقيم، وكل من عبد غير الله استقلالاً، أو عبده مع الله؛ فقد ضل عن سواء السبيل.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ لماذا لا تستفيدون من الأحداث؟ ولماذا تأخذون العبرة من الوقائع التي تمر بكم؟ الشيطان أغوى كثيرين من

قبلكم، وخدع كثيرين من قبلكم، فالواجب عليكم أن تنتبهوا له وتحذروه، فالعاقل من اتعظ بغيره، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾!.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ هذه: اسم إشارة للقريب، هذه جهنم أمامكم، ترونها رأي العين، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]، ظهرت فلم تتوار، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: ٤٣]، وقال في سورة أخرى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣-١٤] هذه جهنم أمامكم، ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ١٠٠]، ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]، ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤]، ولكن لا تنفع (لو)، ولا ينفع التمني، ﴿اصْلَوْهَا﴾ أي ادخلوها دخولاً تغمركم وتحيط بكم النار من جميع الجهات، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم بالله ورسله.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقد يتساءل الإنسان: كيف تتكلم الأيدي والأرجل؟

ولا غرابة في ذلك، فإن الله سبحانه أنطق اللسان وهو قطعة لحم، وهو سبحانه قادر على إنطاق الأيدي والأرجل، وغيرها من الجوارح في الآخرة، كما أنطق اللسان في الدنيا، وهذا إنما يكون في حقِّ الكافرين والمنافقين؛ لأن المؤمن عندما يُعرض على ربه، ويقرره بذنوبه: عملت يوم كذا كذا وكذا، يقرُّ ويعترف ولا ينكر، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ! حَتَّى قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ؛ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ». [متفق عليه].

وعن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَقَالَ: فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ». [الترمذي ٢٦٣٩، وصححه الألباني].

وأما الكافر والمنافق فالكذب دأبهم، فيوم يبعثون ينكرون ويجحدون، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، وحينئذ يختم الله على أفواههم، وتنطق جوارحهم شاهدةً عليهم بما عملوا، كما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى! قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ

لأركانه انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قال: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا! فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ». [مسلم ٢٩٦٩].

قال تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٤].

نسأل الله أن يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويجيرنا من عذاب النار ويدخلنا الجنة برحمته.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ بأن نُذهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم، ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾أي: فبادروا إليه؛ لأنه طريق الوصول إلى الجنة، ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ وقد طُمست أبصارهم؟!

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: لأذهبنا حركتهم، ومسخ الشخصية قَلْبُها إلى شيء مختلف، كحيوان أو صورة أخرى غير الصورة التي كانت عليها، قردة وخنازير وغير ذلك. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ إلى الأمام ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الوراء ليبتعدوا عن النار.

والمعنى: أن هؤلاء الكفار حقَّت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدّ من عقابهم، وفي ذلك الموطن ما ثمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه أحد إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم. وأما هؤلاء فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار، فإن شاء طمس أعينهم، وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. والمقصود أنهم لا يعبرون الصراط، ولا تحصل لهم النجاة. [تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٣٥٧-٣٥٨)].

أحوال الإنسان في الحياة:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ من يزد الله تعالى في عمره ينكس في خلقه مرة ثانية، فسنة الله تعالى في الخلق أن يولد الإنسان ضعيفًا، فإذا عُمِّرَ ازدادت قوته يومًا بعد يوم، حتى يبلغ الأربعين، فيكون قد استوى على أشده، فإذا زاد عن الأربعين أخذ في النقص، حتى يرد إلى أرذل العمر، كما قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]، فيصير ضعيف البدن، ضعيف القوى، ضعيف العقل والذاكرة، وهذه سُنة الله تعالى في الإنسان، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، وهذا التدرج في الخلق آية من آيات قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيعلمون أن الذي يردهم من القوة إلى الضعف قادر أن يردهم بعد الموت إلى الحياة.

إبطال كون النبي ﷺ شاعرًا

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾: لقد اتهم الكفار النبي ﷺ بأنه شاعر، وهذا الاتهام يستلزم كون القرآن شعرًا، فنفى الله تعالى هذه التهمة، فقال سبحانه: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، إنما علمناه القرآن، إذًا هو ليس شاعرًا، وأقسم ربنا سبحانه على ذلك كما هو واضح من الآيات.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ما مكَّن الله تبارك تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول الشعر، فما كان يحسن

أن يقول الشعر، حتى أقوال الشعراء لما كان يرددها كان يبدل بعض ألفاظها، ولا يحكيها كما قالوها، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وذلك كله صيانة للوحي من الاتهام بالشعر، كما أن الله تبارك وتعالى صان القرآن من الافتراء بأن جعل النبي أميًا لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[العنكبوت: ٤٨-٤٩]، فكما أن الله قدّر أن يكون النبي ﷺ أميًا لا يقرأ ولا يكتب، حتى لا يقال: إن القرآن من خط يده، وادعى أنه من عند الله، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ فكذلك حتى لا يقال شاعر، ولا يقال في القرآن أنه شعر، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ إذًا القرآن ليس شعرًا، فما هو القرآن؟

حقيقة الوحي

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ والوصفان وصفان لشيء واحد، وهو الوحي الذي علمه الله نبيه ﷺ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ قرآن يُتلى، وذكر يُذكر به الله سبحانه وتعالى، ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ لينذر (بالياء) أي لينذر القرآن، وقرئت (بالتاء)، لتنذر يا نبينا، والإنذار هو الإعلام المصحوب بالتخويف، والقرآن نذير، والنبي ﷺ نذير، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

ولكن من الذي يخاف إذا تُلي عليه القرآن الكريم؟ ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ يعني حي القلب، وهو المؤمن، أما الكافر فهو ميت، ولذلك ضرب الله تعالى المثل للمؤمن بعد كفره بالحي والميت، فقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] لا يستوون، فجعل الله تبارك وتعالى المؤمن قبل الإيمان ميتًا، وبعد الإيمان حيًا؛ ذلك لأن الوحي روح، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال أيضًا في سورة ق: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ يعني المؤمنين، وأما الكافرون فالله سبحانه وتعالى قال فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]، فالمؤمن هو الذي إذا سمع آيات الوعيد في القرآن خاف وارتعدت فرائصه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ما هو القول الذي يحق على الكافرين، بعد تلاوة القرآن الكريم عليهم، وإقامة الحجة عليهم؟ القول الذي يحق عليهم، هو قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، فإذا تلا النبي ﷺ القرآن يؤمن به من آمن، ويكفر به من كفر، فينتفع المؤمن بتلاوة القرآن، ويأبى الكافر أن ينتفع، فيحق عليه القول بأنه من أهل النار- والعياذ بالله- قال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

باب السنة



حق الجار

إعداد/ زكريا حسيني محمد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ وبعدُ:

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب الأدب (باب الوصاة بالجار)، برقم (٦٠١٤)، كما أخرجه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الموضع نفسه برقم (٦٠١٥)، وأخرجه الإمام مسلم في الصحيح أيضًا في كتاب البر والصلة، في باب الوصية بالجار والإحسان إليه برقم (٢٦٢٤)، ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما في نفس الموضع برقم (٢٦٢٥).

تعريف الجار

قال الراغب في المفردات: الجار من يقرب مسكنه منك، وهو من الأسماء المتضايفة، فالجار لا يكون جارًا لغيره إلا وذلك الغير جار له، وذلك مثل الأخ والصديق، ولما استعظم حق الجار عقلاً وشرعًا عبر عن كل من يعظم حقه أو يستعظم حق غيره بالجار، قال الله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾، وقد تصور من الجار معنى القرب فقيل لمن يقرب من غيره: جاره وجاوره وتجاور معه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً﴾. اهـ. (ص: ١٠٣) بتصرف.

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: واسم الجار يشمل المسلم والكافر، والعابد والفاسق، والصديق والعدو، والغريب والبلدي، والنافع والضار، والقريب والأجنبي، والأقرب دارًا والأبعد، وله مراتب بعضها أعلى من بعض، فأعلاها من اجتمعت فيه الصفات الأُوَل كلها، ثم أكثرها، وهلم جرا إلى الواحد، وعكسه من اجتمعت فيه الصفات الأخرى كذلك، فيعطى كلٌّ حقه بحسب حاله».

بم يحصل حق الجوار؟!

نقل الحافظ عن ابن أبي جمرة: يحصل بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة؛ كالهدية، والسلام، وطلاقة الوجه عند لقائه، وتفقد حاله، ومعاونته فيما يحتاج إليه، وكذلك كفّ أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه؛ حسية كانت أو معنوية، فقد نفى النبي ﷺ الإيمان عمن لا يأمن جاره بوائقه.

إلى أن قال: ويفترق الحال في ذلك بالنسبة للجار الصالح وغير الصالح؛ والذي يشمل الجميع إرادة الخير له، وموعظته بالحسنى، والدعاء له بالهداية، وترك الإضرار له، والذي يخص الصالح هو جميع ما تقدم، وغير الصالح كفّه عن الذي يرتكبه بالحسنى، على حسب مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويعظ الكافر بعرض الإسلام عليه، ويبين محاسنه ويرغبه فيه برفق، ويعظ الفاسق بما يناسبه بالرفق أيضًا، ويستر عليه زلله عن غيره، وينهاه برفق، فإن أفاد فيه وإلا فيهجره قاصدًا تأديبه على ذلك؛ مع إعلامه بالسبب ليكفَّ.

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره». [متفق عليه].

وفي حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه قال: سمعتْ أذناي وأبصرتْ عيناي حين تكلم النبي ﷺ،

فقال: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره...». [متفق عليه أيضًا].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قوله: «فلا يؤذ جاره». وفي حديث أبي شريح: «فليكرم جاره». وقد أخرج مسلم حديث أبي هريرة من طريق الأعمش عن أبي صالح بلفظ: «فليحسن إلى جاره». وقد ورد تفسير الإكرام والإحسان للجار، وترك أذاه في عدة أحاديث أخرجها الطبراني من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأبو الشيخ في «كتاب التوبيخ» من حديث معاذ بن جبل قالوا: يا رسول الله، ما حق الجار على الجار ؟ قال: «إن استقرضك أقرضته، وإن استعانك أعنته، وإن مرض عُدته، وإن احتاج أعطيته، وإن افتقر عدت عليه، وإن أصابه خير هنيته، وإن أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذيه بريح قدرك إلا أن تغرف له، وإن اشتريت فاكهة فأهد له، وإن لم تفعل فأدخلها سرًا ولا تُخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده». قال الحافظ: وألفاظهم متقاربة، والسياق أكثره لعمرو بن شعيب، وفي حديث بهز بن حكيم: «وإن أعوز سترته». قال: وأسانيدهم واهية، لكن اختلاف مخرجها يُشعر بأن للحديث أصلاً.

قال: ثم الأمر بالإكرام يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فقد يكون فرض عين، وقد يكون فرض كفاية، وقد يكون مستحبًا، ويجمع الجميع أنه من مكارم الأخلاق.

حد الجوار

أورد البخاري حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي ؟ قال ﷺ: «إلى أقربهما منك بابًا». ومعنى قوله ﷺ: «أقربهما منك بابًا» أي: أشدهما قربًا، والحكمة في ذلك أن الأقرب يرى الأشياء التي تدخل بيت جاره من الهدايا وغيرها؛ فيتشوف لها، وذلك بخلاف الأبعد، فإنه لا يطلع على شيء من ذلك، ونقل الحافظ عن أبي محمد بن أبي جمرة أن الإهداء إلى الأقرب مندوب؛ لأن الهدية في الأصل ليست واجبة، فلا يكون الترتيب فيها واجبًا.

وحد الجوار قد اختُلف فيه، فورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «من سمع النداء فهو جار». وقيل: «من صلى معك صلاة الصبح في المسجد فهو جار». وجاء عن عائشة رضي الله عنها: «حد الجوار أربعون دارًا من كل جانب». وجاء مثله عن الأوزاعي، وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» عن الحسن مثله، وللطبراني بسند ضعيف عن كعب بن مالك مرفوعًا: «ألا إن أربعين دارًا جار».

وأخرج ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب: «أربعون دارًا عن يمينه وعن يساره ومن خلفه ومن بين يديه. قال الحافظ: وهذا يحتمل كالأولى: ويحتمل أن يريد التوزيع؛ فيكون من كل جانب عشرة.

إثم من لا يأمن جاره بوائقه

تحت هذه الترجمة أورد الإمام البخاري حديث أبي شريح رضي الله عنه، وأسنده أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قيل: يا رسول الله، ومَن ؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه».

قوله ﷺ: «والله لا يؤمن»: وقع تكريرها ثلاثًا بالتصريح هنا، ووقع عند الإمام أحمد: «والله لا يؤمن ثلاثًا». قال ابن حجر: وكأنه اختصاره من الراوي، قال: ولأبي يعلى من حديث أنس: «والله ما هو بمؤمن»، وللطبراني من حديث كعب بن مالك: «لا يدخل الجنة»، ولأحمد نحوه بسند صحيح. وقوله: «قيل: يا رسول الله ومن ؟» وقع لأحمد من حديث ابن مسعود أنه السائل عن ذلك. وذكره المنذري في ترغيبه بلفظ: «قالوا: يا رسول الله، لقد خاب وخسر من هو ؟»».

وقوله: «الذي لا يأمن جاره بوائقه». وفي حديث أنس: «من لم يأمن». وفي حديث كعب: «من خاف». زاد أحمد والإسماعيلي «قالوا: وما بوائقه؟ قال: شرّه».

وقد نقل الحافظ في الفتح عن ابن بطال قوله: في هذا الحديث تأكيد حق الجار؛ لقَسَمه ﷺ على ذلك، وتكريره اليمين ثلاث مرات، وفيه نفي الإيمان عمن يؤذي جاره بالقول أو الفعل، ومراده الإيمان الكامل، ولا شك أن العاصي غير كامل الإيمان. ثم نقل كلامًا للنووي مؤداه أن نفي الإيمان في مثل هذا له جوابان: أحدهما أنه في حق المستحل، والثاني أنه ليس مؤمنًا كاملاً. اهـ. قال الحافظ: ويحتمل أن يكون المراد أنه لا يجازى مجازاة المؤمن بدخول الجنة من أول وهلة مثلاً، أو أن هذا خرج مخرج التغليظ والزجر، وظاهره غير مراد. والله أعلم.

ثم نقل بعد ذلك كلامًا لابن أبي جمرة جيدًا، وهو قوله: إذا أكّد حق الجار مع الحائل بين الشخص

وبينه، وأمر بحفظه وإيصال الخير له، وكفّ أسباب الضر عنه، فينبغي له أن يراعي حق الحافظين [الملَكَين] اللذين ليس بينه وبينهما جدار ولا حائل فلا يؤذيهما بإيقاع المخالفات في مرور الساعات، فقد جاء أنهما يُسَرَّان بوقوع الحسنات، ويحزنان لوقوع السيئات، فينبغي مراعاة جانبهما، وحفظ خواطرهما بالتكثير من عمل الطاعات والمواظبة على اجتناب المعصية، فهما أولى برعاية الحق من كثير من الجيران. اهـ.

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يُذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله، فإن فلانة يُذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «هي في الجنة». [أورده المنذري في الترغيب والترهيب، وعزاه إلى أحمد والبزار وابن حبان والحاكم وصححه الألباني].

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا ؟» قالوا: حرام، حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره». قال: «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله، فهي حرام. قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره». [عزاه المنذري في الترغيب والترهيب لأحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وصححه الألباني].

الحث على مودة الجارة لجارتها ولو بالقليل

ساق الإمام البخاري حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «يَا نِسَاءَ المسلمات، لا تحقرنَّ جارةٌ لجارَتها ولو فِرْسِنِ شاةٍ». [متفق عليه واللفظ لمسلم].

قوله ﷺ: «يا نساء المسلمات» قال القاضي عياض: الأصح الأشهر نصب النساء، وجر المسلمات على أنه منادى مضاف، وهي من إضافة الشيء إلى صفته كمسجد الجامع. وقال السهيلي وغيره: جاء برفع الهمزة على أنه منادى مفرد، ويجوز في المسلمات الرفع صفة على اللفظ، على معنى يا أيها النساءُ المسلماتُ، ونصب المسلمات صفة على محل النساء فهو منادى في محل نصب، وكسرة التاء علامة النصب. قال الحافظ: وأنكر ابن عبد البر رواية الإضافة، ورده ابن السيد بأنها قد صحت نقلاً، وساعدتها اللغة؛ فلا معنى لإنكارها. وقد رواه الطبراني من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «يا نساء المؤمنين». الحديث.

وقوله: «جارة لجارتها» كذا للأكثر، ولأبي ذر: «لجارةٍ». والمتعلق محذوف تقديره (هدية مهداة).

وقوله: (فِرْسِن) بكسر الفاء وسكون الراء وكسر السين آخره نون. وهو حافر الشاة، وهو قليل الفائدة أو عديمها، والمقصود المبالغة في إهداء الشيء اليسير وقبوله لا حقيقة الفرسن، لأنه لم تجرِ العادة بإهدائه، أي لا تمتنع جاره من الإهداء لجارتها الموجود عندها لقلته، بل ينبغي أن تجود لها بما تيسر، وإن كان قليلاً فهو خير من عدمه.

ويحتمل أن يكون النهي إنما وقع للمهدي إليها، وأنها لا تحتقر ما يُهدى إليها ولو كان قليلاً، وحمله على الأعم أولى؛ أي حمله على المهدية والمهدي إليها، وقد جاء في حديث عائشة المشار إليه: «يا نساء المؤمنين، تهادوا ولو فرسن شاة، فإنه ينبت المودة ويذهب الضغائن». وفي الحديث الحض على التهادي ولو باليسير؛ لأن الكثير قد لا يتيسر كل وقت، وإذا تواصل اليسير صار كثيرًا، وفيه استحباب المودة وإسقاط التكلف. قال الحافظ في الفتح: وخص النساء بالنهي لأنهن موارد المودة والبغضاء، ولأنهن أسرع انفعالاً في كل من المودة والبغضاء كذلك.

أصناف الجيران

قال العلماء: الجيران ثلاثة؛ جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق هو الجار المسلم ذو الرحم، أي ذو القرابة، فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم. وأما الذي له حقان فالجار المسلم؛ له حق الجوار وحق الإسلام. وأما الذي له حق واحد فالجار غير المسلم. وجاء بذلك حديث لكنه ضعيف.

وهذا التقسيم موافق لما جاءت به الآيات والأحاديث بالنسبة لحق المسلم وحق القريب وحق الجار، كما أنه موافق للتقسيم العقلي الاستقرائي، وعلى هذا فللجار الكافر مهما كان كفره حق الجوار في الإحسان إليه وترك إيذائه. [اهـ من نضرة النعيم].

وقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه ذبح شاة فقال: أهديتم لجاري اليهودي ؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». [أخرجه أبو داود والترمذي وصححه الألباني].

نصائح غالية لبعض السلف في حسن الجوار

يروى أن الصديق رضي الله عنه رأى ابنه عبد الرحمن يناصي جارًا له (أي يأخذ بناصيته) فقال له: «لا تناصِ جارك، فإن هذا يبقى والناس يذهبون».

ويروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «خلال المكارم عشر: تكون في الرجل ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيده، يقسمها الله تعالى لمن أحب: صدق الحديث، وصدق الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، وحفظ الأمانة، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب، وقِرَى الضيف، ورأسهن الحياء».

ويروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له: إن لي جارًا يؤذيني ويشتمني ويضيق عليَّ، فقال له: اذهب، فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه.

ويروى عن الحسن البصري رحمه الله أنه كان لا يرى بأسًا أن تطعم جارك اليهودي والنصراني من أضحيتك.

وعن بعض العلماء: جملة حق الجار: أن يُبدأ بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طرقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلامًا، ويغضّ بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه.

وجاء في نصيحة بعضهم: اعلم أنه ليس حق الجوار كفّ الأذى فقط، بل احتمال الأذى، ولا يكفي احتمال الأذى، بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف؛ إذ يقال: إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة فيقول: يا رب، سل هذا لِمَ منعني معروفه، وسدَّ بابه دوني ؟

نماذج من حفظ الجار في عرضه

أنشد أبو جعفر العدوي:

شرا جارتي سترًا فضول لأنني
جعلت جفوني ما حييت لها سترًا

وما جارتي إلا كأمي وإنني
لأحفظها سرًا وأحفظها جهرًا

بعثت إليها انعمي وتَنَعَّمِي
فلست مُحِلا منك وجهًا ولا شعرًا

وقال حاتمٌ الطائي:

ناري ونار الجار واحدة
وإليه قبلي تنزل القدرُ

ما ضَرَّ جارًا لي أجاوره
أن لا يكون لبابه سترُ

أغضي إذا ما جارتي برزت
حتى يواريَ جارتي الخدرُ

وهكذا نرى أن الإسلام عَظَّمَ حق الجار، وحثّ على حسن الجوار، وحذّر من سوء الجوار، سواء كان الجار مسلمًا أم غير مسلم، وسواء كان ذا قرابة أم من الأباعد، فله حق الإحسان، وتحرم أذيته بأي نوع من أنواع الإيذاء؛ لكن بعض المسلمين لا يأبهون لهذا، ولا يهتمون له، فبعضهم يتعمد أذى جاره، بإلقاء الزبالات على بابه، أو بوضع الأذى أمام بيته، أو بإيذائه بما يزعجه من الموسيقى والأغاني التي غالبًا ما يصحبها ضجيج مؤذٍ، وقد يكون جاره مريضًا أو عنده أولاد يدرسون ويحتاجون إلى الهدوء، فلا يراعي ذلك.

نسأل الله تعالى أن يهدينا والمسلمين أجمعين إلى التخلق بأخلاق الإسلام العظيمة، مقتفين في ذلك أثر النبي الكريم نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إنا لله وإنا إليه راجعون

توفي يوم الأحد الموافق ١١ جمادى الأولى سنة ١٤٣١ هـ الشيخ/ محمد سيد حاج، من الدعاة البارزين في جماعة أنصار السنة المحمدية بالسودان، أثناء سفره للمشاركة في محاضرة القضارف بشرق السودان.

وجماعة أنصار السنة المحمدية تدعو الله عز وجل أن يغفر له، وأن يسكنه فسيح جناته.



مشروع تيسير حفظ السنة من صحيح الأحاديث القصار

إعداد/ علي حشيش

٢٢٥٦- عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَلَّلُ الصَّفَّ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى نَاحِيَةٍ يَمْسَحُ صُدُورَنَا وَمَنَاكِبَنَا، وَيَقُولُ: «لاَ تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ». وَكَانَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الأُوَلِ». د(٦٦٤)، عب (٢٤٣١)، حم(٢٧٦٥٣، ٢٧٦٥٢)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٥٧- عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَسْتَفْتُونَكَ في الْكَلاَلَةِ فَمَا الْكَلاَلَةُ؟ قَالَ: «تُجْزِئُكَ آيَةُ الصَّيْفِ». فَقُلْتُ لأَبِى إِسْحَاقَ: هُوَ مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَدَعْ وَلَدًا وَلاَ وَالِدًا؟ قَالَ: كَذَلِكَ ظَنُّوا أَنَّهُ كَذَلِكَ. د(٢٨٨٩)، حم(١٨٢٠٢، ١٨١٣٣٣، ١٨١١٦)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٥٨- عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوُضُوءِ مِنْ لُحُومِ الإِبِلِ؛ فَقَالَ «تَوَضَّئُوا مِنْهَا». وَسُئِلَ عَنْ لُحُومِ الْغَنَمِ؛ فَقَالَ: «لاَ تَتَوَضَّئُوا مِنْهَا». وَسُئِلَ عَنِ الصَّلاَةِ في مَبَارِكِ الإِبِلِ فَقَالَ: «لاَ تُصَلُّوا في مَبَارِكِ الإِبِلِ؛ فَإِنَّهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ». وَسُئِلَ عَنِ الصَّلاَةِ في مَرَابِضِ الْغَنَمِ؛ فَقَالَ: «صَلُّوا فِيهَا فَإِنَّهَا بَرَكَةٌ». د(١٨٤)، عب (١٥٩٦)، ت(٨١)، جه(٤٩٤)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٥٩- عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَالِسًا عَلَى حِرَاءٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَتَحَرَّكَ الْجَبَلُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اثْبُتْ حِرَاءُ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ». حم (٢٢٩٣٦)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٦٠- عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَاطِمَةَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا صَغِيرَةٌ» فَخَطَبَهَا عَلِيٌّ فَزَوَّجَهَا مِنْهُ. ن(٣٢٢٣)، حب(٦٩٤٨)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٦١- عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: غَزَوْتُ مَعَ عَلِيٍّ الْيَمَنَ؛ فَرَأَيْتُ مِنْهُ جَفْوَةً، فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَكَرْتُ عَلِيًا فَتَنَقَّصْتُهُ؛ فَرَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَغَيَّرُ، فَقَالَ: يَا بُرَيْدَةُ، أَلَسْتُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ». حم(٢٢٩٩٥)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٦٢- عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «في الإِنْسَانِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ مَفْصِلاً؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ في كُلِّ يَوْمٍ بِصَدَقَةٍ. قَالُوا: وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: النُّخَاعَةُ تَرَاهَا في الْمَسْجِدِ فَتَدْفِنُهَا أَوْ الشَّيْءُ تُنَحِّيهِ عَنِ الطَّرِيقِ؛ فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَرَكْعَتَا الضُّحَى تُجْزِئُكَ». د(٥٢٤٢)، حب(١٦٤٢)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٦٣- عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَقَّ عَنِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. حم (٢٢٥٤٨، ٢٢٤٩١)، ن(٤٢١٨)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٦٤- عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ في صَلاَةِ الْعِشَاءِ الآخِرَةِ بِالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَأَشْبَاهِهَا مِنَ السُّوَرِ. ت(٣٠٩)، حم (٢٢٤٩٨، ٢٢٤٨٤)، ن(٩٩٩)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٦٥- عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحْسَابَ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّذِي يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ الْمَالُ». ن(٣٢٢٥)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٦٦- عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا». د(٣٢٥٣)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٦٧- عَنْ بَشِيرِ ابْنِ الْخَصَاصِيَةِ رضي الله عنه بَشِيرٍ مولى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلاً يَمْشِي في نَعْلَيْنِ بَيْنَ الْقُبُورِ؛ فَقَالَ: «يَا صَاحِبَ السِّبْتِيَّتَيْنِ أَلْقِهِمَا». حم(٢٠٢٥٩)، د(٣٢٣٠)، ن(٢٠٤٨)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٦٨- عَنْ بِلاَلٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمْ يَكُنْ يَنْهَى عَنِ الصَّلاَةِ إِلاَّ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ. حم (٢٣٩٣٣)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٦٩- عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ مَسْأَلَةً وَهُوَ عَنْهَا غَنِيٌّ كَانَتْ شَيْنًا فِي وَجْهِهِ». دي (١٦٤٥)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٧٠- عن مَعْدَان بْنِ طَلْحَةَ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاءَ فَأَفْطَرَ؛ فَلَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَقُلْتُ: إِنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ حَدَّثَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاءَ فَأَفْطَرَ. قَالَ: صَدَقَ، وَأَنَا صَبَبْتُ لَهُ وَضُوءَهُ ﷺ. د(٢٣٨١)، حم (٢١٨٦٦)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٧١- عن جَابِرِ بن طارق رضي الله عنه قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ وَعِنْدَهُ هَذِهِ الدُّبَّاءُ، فَقُلْتُ: أَيُّ شَيْءٍ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْقَرْعُ هُوَ الدُّبَّاءُ نُكْثِرُ بِهِ طَعَامَنَا. جه (٣٣٠٤)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٧٢- عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَا يَحْلِفُ أَحَدٌ عِنْدَ مِنْبَرِي هَذَا عَلَى يَمِينٍ آثِمَةٍ، وَلَوْ عَلَى سِوَاكٍ أَخْضَرَ إِلَّا تَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». أَوْ «وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ». د(٣٢٤٦)، جه (٢٣٢٥)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٧٣- عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما يَقُولُ: قَرَّبْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُبْزًا وَلَحْمًا فَأَكَلَ، ثُمَّ دَعَا بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ بِهِ، ثُمَّ صَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ طَعَامِهِ، فَأَكَلَ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ. د(١٩١)، حم (١٤٦٦٢)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٧٤- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَشَى مَشَى أَصْحَابُهُ أَمَامَهُ، وَتَرَكُوا ظَهْرَهُ لِلْمَلَائِكَةِ. جه (٢٤٦)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٧٥- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ أَوْ أَصْغَرَ؛ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ». جه (٧٣٨)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٧٦- عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ؛ وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ». جه (١٤٠٦)، حم (١٤٨٤٧، ١٤٢٨٤)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٧٧- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَلِّ عَلَيَّ وَعَلَى زَوْجِي. فَقَالَ النبي ﷺ: «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكِ وَعَلَى زَوْجِكِ». د(١٥٣٣)، حب (٩١٨، ٩١٦)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٧٨- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ لَكَ فِي كَنْزٍ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». حم (٢٠٨٤١)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٧٩- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ أَحْسَنَ مَا غُيِّرَ بِهِ هَذَا الشَّيْبُ الْحِنَّاءُ وَالْكَتَمُ». د(٤٢٠٥)، حم (٢٠٧٩٩)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٨٠- عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا. ومعنى: حزاورة: أقوياء. جه (٦١) وهو حديث صحيح.

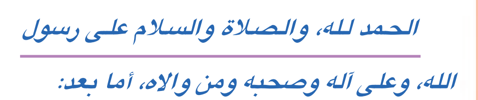
٢٢٨١- عن أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ؛ فَإِنَّ عَلَيْهِ دَيْنًا. قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: هُوَ عَلَيَّ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْوَفَاءِ؟ قَالَ: بِالْوَفَاءِ؛ فَصَلَّى عَلَيْهِ. ن(١٩٦٢)، حم(٢٢٠٦٥)، ت(١٠٦٩)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٨٢- عَنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكٍ ابْنِ بَرْصَاءَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُغْزَى مَكَّةُ بَعْدَهَا أَبَدًا». حم (١٨٥٣٩)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٨٣- عَنْ حُبْشِيِّ بْنِ جُنَادَةَ، قَالَ يَحْيَى: وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: وَالْمُقَصِّرِينَ. حم(١٧٥٤٢)، وابن أبي شيبة (١٣٧٧٩)، وهذا حديث صحيح.

٢٢٨٤- عَنْ حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُنَفِّلُ الرُّبُعَ بَعْدَ الْخُمُسِ، وَالثُّلُثَ بَعْدَ الْخُمُسِ إِذَا قَفَلَ. د(٢٧٤٩)، وهذا حديث صحيح.





الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد ذكرت فيما سبق معاني المحكم والمتشابه وتفسير آية آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، وانتهيت في المقال السابق إلى توضيح معنى التأويل عند أهل العلم، كما قال بعضهم: «والتأويل بمعنى التفسير، وبمعنى العاقبة المجهولة التي لا يعلمها إلا الله، وكلا المعنيين موجود في القرآن».

أما شيخ الإسلام ابن تيمية -عليه رحمة الله- فقد قال في تفسير سورة الإخلاص: «وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه -كما ذكره الخلال في كتاب السنة، وكما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده في الكتب المصنفة في ذلك- في غير هذا الموضع، وبيَّن أن لفظ التأويل في الآية إنما أريد به التأويل في لغة القرآن، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وعن ابن عباس في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ تصديق ما وعد في القرآن.

وعن قتادة قال: تأويله: ثوابه. وعن مجاهد: جزاؤه. وعن السُّدِّي: عاقبته. وعن ابن زيد: حقيقته. قال بعضهم: تأويله ما يؤول إليه أمرهم من العذاب وورود النار.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]، قال بعضهم: تصديق ما أوعدوا به من الوعيد، والتأويل ما يؤول إليه الأمر، وعن الضحاك: يعني عاقبة ما وعد الله في القرآن أنه كائن من الوعيد، والتأويل ما يؤول إليه الأمر. وقال يوسف الصديق عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فجعل نفس سجود أبويه وإخوته له تأويل رؤياه.

وقال قبل هذا: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧] أي قبل أن يأتيكما التأويل. والمعنى: لا يأتيكما طعام ترزقانه في المنام؛ لما قال أحدهما: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ [يوسف: ٣٦]، ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ في اليقظة ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ الطعام. هذا قول أكثر المفسرين، وهو الصواب.

فهذا لفظ التأويل في مواضع متعددة كلها بمعنى واحد.

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال مجاهد وقتادة: جزاءً وثوابًا، وقال السدّي وابن زيد وابن قتيبة والزجاج: عاقبة. وعن ابن زيد أيضًا: تصديقًا. كقوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾. وكل هذه الأقوال صحيحة. والمعنى واحد، وهذا تفسير السلف جميعًا، ومنه قوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، فلما ذكر له ما ذكر قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، وهذا تأويل فعله، ليس هو تأويل قوله، والمراد به عاقبة هذه الأفعال بما يؤول إليه ما فعلته، من مصلحة أهل السفينة، ومصلحة أبوي الغلام، ومصلحة أهل الجدار.

التأويل والتفسير عند قدماء المفسرين

وأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل والتفسير عندهم سواء، كما كان ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: القول في تأويل هذه الآية. أي في تفسيرها.

ولما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد، وهو إمام التفسير جعل الوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾؛ فإن الراسخين في العلم يعلمون تفسيره، وهذا القول اختيار ابن قتيبة وغيره من أهل السنة.

وأما متأخرو المفسرين كالثعلبي فيفرقون بين التفسير والتأويل. قال: فمعنى التفسير هو التنوير، وكشف المغلق من المراد بلفظه، والتأويل: صرف الآية إلى معنىً تحتمله يوافق ما قبلها وما بعدها، وتكلم في الفرق بينهما بكلام ليس هذا موضعه، إلا أن التأويل الذي ذكره هو المعنى الثالث المتأخر.

قال أبو الفرج ابن الجوزي -رحمه الله-: اختلف العلماء هل التفسير والتأويل بمعنى واحد؟ أم يختلفان؟ فذهب قوم يميلون إلى العربية: إلى أنهما بمعنى، وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين. وذهب قوم يميلون إلى الفقه: إلى اختلافهما، فهؤلاء لا يذكرون للتأويل إلا المعنى الأول، والثاني، وأما التأويل في لغة القرآن فلا يذكرونه، وقد عُرف أن التأويل في القرآن هو الموجود الذي يؤول إليه الكلام، وإن كان ذلك موافقًا للمعنى الذي يظهر من اللفظ، بل لا يُعرف في القرآن لفظ التأويل مخالفًا لما يدل عليه اللفظ، خلاف اصطلاح المتأخرين.

والكلام نوعان: إنشاء، وإخبار. فالإنشاء: الأمر والنهي والإباحة، وتأويل الأمر والنهي نفس فعل المأمور، ونفس ترك المحظور، كما في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأولُ القرآن» [متفق عليه]. فكان هذا الكلام تأويل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣].

قال ابن عيينة: السنة تأويل الأمر والنهي.

فالتفسير من جنس الكلام: يفسر الكلام بكلام يوضحه. وأما التأويل فهو فعل المأمور، وترك المنهي عنه، ليس هو من جنس الكلام.

والنوع الثاني: إخبار: فإخبار الرب عن نفسه تعالى بأسمائه وصفاته، وإخباره عما ذكره لعباده من الوعد والوعيد، وهذا هو التأويل المذكور في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٢-٥٣]، وهذا قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ومثله قوله: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٥-٢٧]، ونظائره متعددة في القرآن.

وكذلك قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٨-٣٩]، فإن ما وُعدوا به في القرآن لما يأتهم بعد، وسوف يأتيهم.

فالتفسير هو الإحاطة بعلمه، والتأويل هو نفس

ما وعدوا به إذا أتاهم، فهم كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتيهم تأويله.

وقد يحيط الناس بعلمه، ولما يأتيهم تأويله، فالرسول ﷺ يحيط بعلم ما أنزل الله عليه، وإن كان تأويله لم يأت بعد.

قال شيخ الإسلام معقبًا على الكلام السابق: «وإذا تبين ذلك، فالمتشابه من الأمر لا بد من معرفة تأويله؛ لأنه لا بد من فعل المأمور، وترك المحظور، وذلك لا يمكن إلا بعد العلم، لكن ليس في القرآن ما يقتضي أن في الأمر متشابهًا، فإن الخبر مثل ما أخبر به في الجنة من اللحم واللبن والعسل والماء والحرير والذهب، فإن بين هذا وبين ما في الدنيا تشابهًا في اللفظ والمعنى، ومع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا، وتلك الحقيقة لا نعلمها نحن في الدنيا، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» [متفق عليه]. فهذا الذي وعد الله به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، وكذلك وقت الساعة لا يعلمه إلا الله، وأشراطها، وكذلك كيفيات ما يكون فيها من الحساب والصراط، والميزان والحوض، والثواب والعقاب لا يعلم كيفيته إلا الله، فإنه لم يخلق بعدُ حتى تعلمه الملائكة، ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به، فهو من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

وكذلك ما أخبر به الربُّ عن نفسه مثل استوائه على عرشه، وسمعه وبصره وكلامه وغير ذلك، فإن كيفيات ذلك لا يعلمها إلا الله.

جميع ظواهر نصوص القرآن مفهومة لدى المخاطبين

لقد أنزل الله تعالى كتابه بلسان عربي مبين، على نبي من العرب، وخاطب به أول من خاطب أمة عربية؛ كي يكون هاديًا ومرشدًا إلى الحق، وهذا يعني أنه مفهوم لدى المخاطبين به، كي تقوم الحجة، وتنقطع المعذرة.

قال ابن جرير الطبري -رحمه الله- عند كلامه على مراتب البيان، وأن القرآن جاء بأعظمها وأعلاها: «فإذا كان كذلك، وكان غير مبين منا عن نفسه مَنْ خاطب غيره بما لا يفهمه عنه المخاطَب - كان معلومًا أنه غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحدًا من خلقه إلا بما يفهمه المُخاطبُ، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولاً برسالة بلسان وبيان لا يفهمه المرسلُ إليه؛ لأن المخاطب والمرسل إليه إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه؛ فحاله قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده سواء؛ إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئًا كان به قبل ذلك جاهلاً.

والله جل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطابًا أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت إليه؛ لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك متعال، ولذلك قال جل ثناؤه في محكم تنزيله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤] فغير جائز أن يكون به مهتديًا، من كان بما يهدي إليه جاهلاً.

وقد جلى هذه المسألة وفصلها ورد على المخالفين لها من وجوه عدة، الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى، ومن ذلك قوله: «والمقصود هنا: أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلامًا لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ، سواء كان مع هذا تأويل للقرآن لا يعلمه الراسخون، أو كان للتأويل معنيان: يعلمون أحدهما، ولا يعلمون الآخر، وإذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المتشابه من القرآن، وبين أن يقال: الراسخون في العلم يعلمون؛ كان هذا الإثبات خيرًا من ذلك النفي، فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره، وهذا مما يجب القطع به، وليس معناه قاطعًا على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تفسير المتشابه، فإن السلف قد قال كثير منهم: إنهم يعلمون تأويله، منهم مجاهد - مع عظم قدره - والربيع بن أنس، ومحمد بن جعفر بن الزبير، ونقلوا ذلك عن ابن عباس، وأنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله».

قالوا: والدليل على ما قلناه: إجماع السلف، فإنهم فسروا جميع القرآن، وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أقفه عند كل آية، وأسأله عنها، وتلقوا ذلك عن النبي ﷺ. كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي

ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا، وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه، لا لأن أحدًا من الناس لا يعلمه، لكن لأنه هو لم يعلمه.

وأيضًا فإن الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقًا، ولم يستثن منه شيئًا لا يُتدبر، ولا قال: لا تدبروا المتشابه، والتدبر بدون الفهم ممتنع، ولو كان من القرآن ما لا يُتدبر لم يُعرف، فإن الله لم يميز المتشابه به بحدٍّ ظاهر حتى يُجتنب تدبره.

وهذا أيضًا مما يحتجون به، ويقولون: المتشابه أمر نسبي إضافي؛ فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على غيره، قالوا: ولأن الله أخبر أن القرآن بيان وهدًى وشفاء ونور، ولم يستثن منه شيئًا عن هذا الوصف، وهذا ممتنع بدون فهم المعنى، قالوا: ولأن من العظيم أن يقال: إن الله أنزل على نبيه كلامًا لم يكن يفهم معناه، لا هو ولا جبريل، بل وعلى قول هؤلاء كان النبي ﷺ يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد، ونحو ذلك، مما هو نظير متشابه القرآن عندهم، ولم يكن يعرف معنى ما يقوله، وهذا لا يظن بأقل الناس.

وأيضًا فالكلام إنما المقصود به الإفهام، فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثًا وباطلاً، والله تعالى قد نزَّه نفسه عن فعل الباطل والعبث، فكيف يقول الباطل والعبث ويتكلم بكلام ينزله على خلقه لا يريد به إفهامهم، وأيضًا فما في القرآن آية إلا وقد تكلم الصحابة والتابعون لهم بإحسان في معناها وبينوا ذلك.

الراسخون في العلم يعلمون تفسير المتشابه

وإذا قيل: فقد يختلفون في بعض ذلك؟ قيل: كما قد يختلفون في آيات الأمر والنهي، وآيات الأمر والنهي مما اتفق المسلمون على أن الراسخين في العلام يعلمون معناها.

وهذا أيضًا مما يدل على أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه، فإن المتشابه قد يكون في آيات الأمر والنهي، كما يكون في آيات الخبر، وتلك مما اتفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها، فكذلك الأخرى، فإنه على قول النفاة لم يعلم معنى المتشابه إلا الله، لا ملك ولا رسول ولا عالم، وهذا خلاف الإجماع في متشابه الأمر والنهي، وأيضًا فلفظ التأويل يكون للمحكم، كما يكون للمتشابه، كما دل القرآن والسنة وأقوال الصحابة على ذلك، وهم يعلمون معنى المحكم، فكذلك معنى المتشابه، وأي فضيلة في المتشابه، حتى ينفرد الله بعلم معناه، والمحكم أفضل منه، وقد بيَّن معناه لعباده، فأي فضيلة في المتشابه، حتى يستأثر الله بعلم معناه، وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل به خطابًا، ولم يذكر في القرآن آية تدل على وقت الساعة، ونحن نعلم أن الله تعالى استأثر بأشياء لم يُطلع عباده عليها، وإنما النزاع في كلام أنزله وأخبر أنه هدًى وبيان وشفاء وأمر بتدبره، ثم يقال: إن منه ما لا يعرف معناه إلا الله، ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذي لا يعرف أحد معناه، ولهذا صار كل من أعرض عن آيات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه.

وبالجملة: فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول: إن في القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول ولا غيره. إلى آخر ما ذكر رحمه الله.

ومما يدل على ما سبق ما صح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: والذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله، إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.[متفق عليه].

وعن مسروق قال: «كان عبد الله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها ويُفسرها عامة النهار».

وعن ابن أبي مليكة قال: «رأيت مجاهدًا يسأل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب. قال: حتى سأله عن التفسير كله».

قال ابن قتيبة رحمه الله: «ولسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى، ولم يُنزل الله شيئًا من القرآن إلا لينفع به عباده، ويدل به على معنًى أراده، فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال، وتعلق علينا بعلة، وهل يجوز لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه؟ وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته فقد علمهم نبيهم ﷺ التفسير.

وبعدُ: فإنا لم نَرَ المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمرُّوه كله على التفسير». [تأويل مشكل القرآن].

وللحديث بقية إن شاء الله.



الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

قرائن السياق المنفصلة هي التي لا تكون مذكورة مع النص، وإنما تكون منفصلة عنه، وهي من مخصصات عموم النص، ذكرنا منها التخصيص بالشرع بأنواعه المتعددة، والتخصيص بالعقل، ونستكمل البحث إن شاء الله تعالى.

تخصيص النص العام بالعقل

فنقول: من العلماء من قال: إنه ليس مخصصًا؛ لأنه ما دل العقل على عدم دخوله تحت اللفظ، لا يكون اللفظ موضوعًا له أصلاً، فقالوا: إن العام لا يخصص بالعقل، وإنما يخصص بالدليل، ولذلك لم يكن الصحابة يخصصون العموم إلا بنص، ولا يخصصونه بالعقل.

وأجابوا عن الآيات التي احتج بها القائلون بالتخصيص بالعقل، كقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢١]، ومعلوم بالعقل أنها لم تدمر كل ما على الأرض.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، ومعلوم بالعقل أن صفات الله غير مخلوقة.

والجواب: أن هذا ليس من باب تخصيص العام بالعقل، إنما هو من باب العموم الذي يُراد به الخصوص.

قال ابن عثيمين: وهذا القول وجهه قوي جدًا.

- والفارق بين العام الذي خُصِّص (العام المخصوص)، والعام الذي أريد به الخصوص أصلاً: أن العام الذي أُريد به الخصوص لم يكن عمومه مرادًا من أول الأمر، ولم يكن متناولاً له فلا يحتاج إلى إقامة الدليل على إخراجه؛ لأنه لم يدخل في العموم من الأصل.

أما الذي خُصِّص، فكان من أول الأمر مرادًا عمومه لكل أفراده.

- ورجَّح ابن قدامة في «الروضة» أن الآيات السابقة من العام المخصوص (الذي خُصِّص فيما بعد)، وأرجع الخلاف في المسألة إلى النزاع اللفظي فقط. [شرح الأصول لابن عثيمين ص٢٩٧، ٢٩٨، روضة الناظر لابن قدامة ٢ / ١٢٤، تكملة الأصول الفقه على منهج أهل الحديث لزكريا بن غلام ١ / ١٣٨].

والحاصل أن أكثر أهل العلم على أن العقل من المخصصات، ففي الآيتين لفظ: «كل شيء» موضوع في اللغة للعموم، ولا يمكن حمل اللفظ على عمومه لدلالة العقل على خروج كل ما لم يُدمَّر على الأرض في الآية الأولى، وخروج الله جل وعلا وصفاته من



هذا العموم في الآية الثانية.

ثالثًا: التخصيص بالحس والمشاهدة

المراد به المشاهدة والإدراك بالحواس، ومعناه أن يأتي لفظ عام دل الحس على أنه ليس على عمومه.

المثال الأول: قوله تعالى عن ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فلفظ: «كل شيء» هذا عام، جاءت القرينة الحسيّة أن ما دُمِّر هم الآدميون فقط، فلم تدمَّر السماء والأرض، وهذا التخصيص علمناه بالحس والمشاهدة.

والريح لم تدمر مساكنهم أيضًا، لكن هذا لم يخص بالحس، بل بالنص، فقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

المثال الثاني: قوله تعالى عن ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

فخُصَّ هذا العموم بالحس والمشاهدة، فهناك أشياء لم تؤت إياها، ومنها ما في يد سليمان عليه السلام؛ فلم يكن في يدها على الأقل، وغير ذلك، لكنها أوتيت من كل شيء يؤتاه ملوك زمانها.

المثال الثالث: قوله تعالى عن الحرم: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]، ومعلوم بالحس والمشاهدة أن هناك من الثمرات في مشارق الأرض ومغاربها لم تُجْبَ إلى الكعبة، وكل وقت له ثمرات مختلفة عن الوقت الآخر، فكل وقت بحسبه.

- لكن هذا الحس والمشاهدة لا بد أن يكون متفَقًا عليه؛ حتى لا يدخل من يعملون عقولهم في تخصيص الكتاب والسنة بالحس والمشاهدة. [شرح الورقات ١ / ١٣٤، شرح الأصول من علم الأصول ٢٩٤، ٢٩٥].

رابعًا: التخصيص بالعرف

ما هو العرف؟

العرف: هو ما اعتاده جمهور الناس وألفوه من فعل شاع بينهم أو لفظ تعارفوا على إطلاقه على معنى خاص، بحيث لا يتبادر غيره عند سماعه.

- والعرف ينقسم إلى ثلاثة أنواع بثلاثة اعتبارات، وهي:

النوع الأول: القولي والعملي

١- العرف القولي: وهو أن يتعارف جمهور الناس على إطلاق لفظ معين خاص؛ بحيث إذا أُطلق هذا اللفظ انصرف الذهن إلى ذلك المعنى المتعارف عليه، دون حاجة إلى قرينة.

ومن أمثلة ذلك: إطلاق لفظ الولد على الذكر دون الأنثى، مع أنه في اللغة يشملهما معًا، قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

٢- العرف العملي: وهو ما اعتاده جمهور الناس في تصرفاتهم، وساروا عليه في معاملاتهم.

ومن أمثلة ذلك: تعارفهم على البيع بالتعاطي من غير صيغة لفظية بالإيجاب والقبول؛ وذلك بأن يدفع المشتري الثمن للبائع في السلعة المعلومة الثمن، ويأخذ السلعة دون أن يقع منهما صيغة لفظية.

النوع الثاني: العام والخاص

١- العرف العام: وهو الذي يتعارفه أهل البلاد جميعًا في زمن من الأزمنة.

مثال ذلك: تعارفهم على أن أجرة الحمَّام لا تتعلق بمدة المكث فيه، ولا بمقدار الماء المستهلك.

٢- العرف الخاص: وهو ما كان ساريًا في بعض البلدان دون باقيها، أو طائفة دون غيرها من الطوائف.

ومثال ذلك: تعارف أهل العراق على إطلاق لفظ الدابة على الفرس فقط.

النوع الثالث: الصحيح والفاسد

١- العرف الصحيح: وهو ما تعارف عليه الناس، وليس فيه مخالفة لنص، ولا تفويت مصلحة ولا جلب مفسدة.

ومثال ذلك: تعارف الناس على أن ما يقدمه الخاطب إلى خطيبته من ملابس ونحوها إنما هو هدية فقط، وليس له علاقة بالمهر.

٢- العرف الفاسد: وهو ما خالف نصًّا شرعيًّا أو فوَّت مصلحة، أو جلب مفسدة، ومثال ذلك ما تعارف عليه الناس من بعض العقود الربوية، وهذا لا يُلتفت إليه.

ومن أمثلة التخصيص بالعرف:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فلفظ الوالدات عام، ولكن العرف خصَّ منه الوالدة الرفيعة القدر التي ليس من عادة مثيلاتها إرضاع أولادهنَّ إن كان الولد يقبل ثدي غيرها للمصلحة العرفية، كما ذهب إلى ذلك الإمام مالك، وهكذا أصبح العام، وهو «والوالدات»، قاصرًا على غير هذا النوع الذي خصَّه العرف العملي.

المثال الثاني: من حلف ألا يأكل اللحم، فلفظ اللحم عام، يشمل كل أنواع اللحم بما فيه السمك، وقد سمَّى الله تعالى السمك لحمًا، كما في قوله

تعالى: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[فاطر: ١٢]، لكن قيل خُص ذلك بالعرف، فإن السمك لا يدخل في مسمَّى اللحم، فإن أكل سمكًا لا يحنث.

المثال الثالث: لو أقسم ألا يدخل بيتًا، فلفظ «بيتًا» عام يشمل كل بيت، بما فيه بيت الله تعالى وهو المسجد، وقد سماه الله تعالى بيتًا ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]، لكن خُصَّ ذلك بالعرف؛ إذ إن أعراف الناس ألا يطلقوا اسم البيت على المسجد، فلو دخل المسجد لا يحنث؛ لأن العموم خُصَّ بالعرف.

يقول الشاطبي في الاعتصام (١ / ٣٩٠): عند الإمام مالك رد الأيمان (القسم) إلى العرف، مع أن اللغة تقتضي في ألفاظها غير ما يقتضيه العرف، ثم ضرب مثال البيت والمسجد السابق. [انظر: موسوعة هل يستوي الذين يعلمون ١ / ٤٥ - ٤٧، والسياق وأثره د. عبد المجيد السوسوة ص٦٢].

خامساً: التخصيص بقول الصحابي

قول الصحابي ينقسم إلى أربعة أقسام:

١- قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه، كالعبادات والتقديرات ونحوها، (وهو ما له حكم الرفع)، وهذا القسم حجة عند الأئمة الأربعة؛ لأنه لا بد أن يكون سمعه الصحابي من النبي ﷺ؛ إذ لا اجتهاد في الأمور التي لا تُعرف إلا بتوقيف، ولكن الأئمة اختلفوا في مدى الاحتجاج به قلةً وكثرة؛ لعدم الاتفاق على ضابط معين يحدد ما لا مجال للرأي فيه.

فقد يرى بعضهم أن هذه المسألة مما لا مجال للرأي فيها؛ فيعمل بقول الصحابي فيها، ويرى الآخر أنها مما يدخله الاجتهاد فلا يعمل بقول الصحابي فيها.

٢- قول الصحابي الذي اشتهر ولم يخالفه غيره فيه، وهذا يسمى بالإجماع السكوتي، وهو حجة عند الجمهور.

والشهرة قد يُستدل عليها بكثرة خوض الصحابة في المسألة، أو بكون الصحابي من الخلفاء الأربعة، أو إن المسألة مما تعم به البلوى وتقع لكثير من الناس، مثل جعل عمر رضي الله عنه طلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثًا توجب البينونة الكبرى.

٣- قول الصحابي الذي خالفه فيه غيره من الصحابة، فإنه ليس بحجة، ولكن يتخيَّر من أقوالهم حسب الدليل.

٤- قول الصحابي الذي فيه مجال للرأي، ولم يُعرف له مخالف من الصحابة، وهذا حجة عند أبي حنيفة ومالك وأحمد والشافعي في القديم، وإن كان ابن القيم قال: إن مذهب الشافعي (الجديد) لا يختلف عن مذاهب الأئمة الثلاثة [أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله ١ / ١٣٢- ١٣٤، مذكرة أصول الفقه ١ / ٥٥].

وقول الصحابي الذي يخصص العموم - باتفاق أهل العلم-: ما كان له حكم الرفع، وذلك فيما لا مجال للرأي فيه، كالغيبيات والعبادات والعقائد.

لأن ذلك من قبيل الخبر التوقيفي عن النبي ﷺ، وذلك كقول الصحابي: «أمر النبي ﷺ بكذا»، و«نهى عن كذا»، و«أمرنا رسول الله ﷺ بكذا»، و«نهانا» عن كذا، و«أُمرنا»، و«نُهينا»، و«رُخِّص لنا»... وما شابه ذلك.

- قال ابن الصلاح: حكم ذلك عند أهل العلم حكم المرفوع صريحًا. [مقدمة ابن الصلاح ص٢٥].

ومن أمثلة ذلك: قول أنس رضي الله عنه: «من السنة إذا تزوج البكر على الثيِّب أقام عندها سبعًا». [متفق عليه].

وكقول سَعِيد بْن جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنْ الْكَيِّ. قال وَرَفَعَ الْحَدِيثَ». [البخاري ٥٦٨٠].

- وكقول أم عطية رضي الله عنها: «نُهينا عن اتباع الجنائز ولم يُعزم علينا». [متفق عليه].

أمثلة على التخصيص بقول الصحابي

المثال الأول: في الحديث أن النبي ﷺ نهى عن لبس الحرير للرجال، فعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حُرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأُحلَّ لإناثهم». [الترمذي ١٧٢٠ وصححه الألباني].

فالحديث عام يشمل النهي عن لبس الحرير والذهب للرجال.

لكن جاء عن أنس رضي الله عنه قال: رَخَّصَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فِي لُبْسِ الْحَرِيرِ لِحِكَّةٍ كَانَتْ بِهِمَا. [مسلم ٥٥٥٢].

فقول الصحابي هنا -أنس رضي الله عنه- خصَّص عموم النهي في حديث النبي ﷺ. [شرح الكوكب المنير ٣ / ٣٧٦- ٣٧٧].

المثال الثاني: في حديث النبي ﷺ: «لاَ يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ». [أبو داود ٢٠٠٤ وصححه الألباني].

فالحديث عام يشمل الجميع رجالاً ونساءً بما فيهن الحُيَّض. لكن جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «أُمر الناس أن يكون آخر عهدهم

بـالـبـيت إلا أنه خُـفِّف عن الحـائض». [مـتفق عليه].

فقول ابـن عبـاس خصَّص المرأة الحـائض من عموم النساء، بأنه ليس عليها طواف الوداع.

مسألة: هل يُخصّص الحديث بمذهب راويه من الصحابة

أن يـكون هـو الـراوي، كـحديث ابن عـباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ». [البخاري ٣٠١٧].

فإن لـفظة (من) عـامة في المذكر والمؤنث، وقد رُوى عن ابن عباس أن المرأة إذا ارتدت تُحبس ولا تـقتل، فخصَّ الـحديث بـالـرجال، فإن قلـنـا: قول الـصحـابي حجَّة، خُصَّ عـلى المختار، وقد نُسب ذلك إلى الشافعي، ونُقل عنه أنه لا يُخصص به إلا إذا انتشر في هذا العصر ولم ينكره، وجعل ذلك نازلاً منزلة الإجماع.

وإن قلنا: إن قول الصحابي غير حجة؛ فهو مـوضع الخلاف، والـصـحـيح أنه لا يُـخص به، خلافًا للحنفية والحنابلة، وشبهتهم أن الصحابي الـعدل لا يـترك ما سمعه من النـبي ﷺ، ويـعمل بخلافه إلاَّ لـنسخٍ ثبت عنده، ولنا (الشافعية) أن الحجة في اللفظ وهو عام، وتخصيص الراوي لا يصلح أن يـكون مـعارضًا؛ لأنه يـجوز أن يكون خـصَّه بدلـيل لا يُوافَق علـيه لـو ظـهر، فلا تـترك الدلالة اللفظية لمحتمل. [البحر المحيط للزركشي ٤ / ٢٦٤ بتصرف].

فائدة: وفي مصابيح الـتنوير على صحيح الجامع الصغير (١ / ٢٠٥): وعموم الحديث (من بدَّل دينه فاقتلـوه)، يشمل الـرجل وهو إجماع، والمرأة وعليـه الأئمة الـثلاثة (مالك والشـافعي وأحمد)، وقال أبو حنيفة: لا تقتل المرأة؛ لأنَّ مَن الشرطية لا تعمّ المؤنث؛ للنهي عن قتل النساء، كما لا تقتل في الكفر الأصلي.

- فـفي الـحـديث: نـهى عن قـتل الـنـسـاء والصبيان. [أحمد ٥٩٥٩ وصححه الألباني].

لا تُقتل في الطارئ ولا في المنتقل؛ لأنّ الكفر ملة واحدة.

سادساً: التخصيص بالمفهوم

المفهوم: هـو مـا دلَّ عـلـيه الـلفظ لا في محل النطق.

وهو نوعان: مفهوم الموافقة، ومفهوم المخالفة.

النـوع الأول: مـفهـوم المـوافقة: هـو مـا يـكون مدلول اللفظ في محل السكوت موافقًا لمدلوله في محل النطق.

ويـسمى بمـفـهـوم الخطـاب، ولحن الخطـاب، وبالقياس الجلي، وبالتنبيه.

- ويـنـقسم مـفهـوم المـوافـقة إلى قـسمـين باعتبارين:

الاعـتـبـار الأول: يـنـقسم إلى مـفـهـوم أولى، ومفهوم مساوٍ.

أ- مفهوم الأولى: وهو ما كان المسكوت عنه أوْلى بالحكم من المنطوق، كدلالة تحريم التأفيف عـلى تـحـريم الـضـرب؛ لأنه أشـد، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ونحـو قـوله تعـالى: ﴿فَمَنْ يَـعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، فما فوق الذَّرة من أعمال الخير هو أولى بالأجر والثواب.

ب- مفهوم مساوٍ: وهو ما كان المسكوت عنه مساويًا للمنطوق في الحكم، كدلالة تحريم أكل مـال الـيـتـيم عـلى تـحريم إحـراقه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

فالأكل والإحراق متساويان؛ إذ الجميع إتلاف.

الاعتبار الثاني: أن مفهوم الموافقة منه ما هو قطعي، ومنه ما هو ظني.

أ- فـالـقطـي: مـا قُطع فيه بـنـفي الـفـارق بـين المـسـكـوت عـنه والمـنـطـوق، كـمـا في الآيـتـين السابقتين.

ومن القطعي: رهن مصحف عند ذمِّي، احتج الإمام أحمد - رحمه الله - في رهن المصحف عن الذّمي بـنـهي النـبي ﷺ عن الـسفـر بـالـقرآن إلى أرض الـعـدو؛ مـخـافـة أن تـنـالـه أيـديـهم [أبـو داود ٢٦١٢]، فهذا قطعي. [شرح الكوكب المنير ٣ / ٤٨٦].

فـعن ابن عـمـر رضي الـله عـنـهـمـا قـال: نـهى رسول الله ﷺ أن يُسافَر بالقرآن إلى أرض العدو. [متفق عليه]. وفي رواية لمسلم: «لاَ تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ؛ فَإِنِّي لاَ آمَنُ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ». [مسلم ٤٩٤٨].

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: لأنه إذا نـهى عمـا قد يـكون وسـيـلـة إلى نـيـلـهم إياه فـهو عن إنالتهم إياه أنهى وأنهى. [المسودة ٣٤٧].

ب- والظني: مـا ظُنَّ فيه انـتفـاء الـفـارق كأن يـقال: إذا رُدَّت شـهادة الفـاسق فـالكـافر أولى؛ لأن الفاسق قد يحترز من الكذب لدينه، والكافر مُتَّهم في الدين.

النوع الثاني: مفهوم المخالفة

وهو ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت مخالفًا لمدلوله في محل النطق.

وهو ينقسم إلى أقسام متـعددة؛ نعرض لـهـا بـالمـنـاقـشة في الـعـدد الـقـادم إن شـاء الـله وقدر، والحمد لله رب العالمين.

الشيعة الإسماعيلية

إعداد/ أسامة سليمان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فإن الشيعة الإسماعيلية فرقة باطنية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها هدم الإسلام، وجذورها من الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ذلك أنهم لما أبوا إمامة موسى الكاظم -الإمام السابع عند الرافضة- وقاموا بنقل الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر انشقوا عن الإمامية بعد موت جعفر الصادق.

والشيعة الإسماعيلية تنقسم إلى فرق منها

١- الإسماعيلية القرامطة:

والقرامطة هم الذين هاجموا الكعبة المشرفة، وقتلوا كثيرًا من حجاج بيت الله، وسرقوا الحجر الأسود، وظل عندهم أكثر من عشرين سنة، وكان ظهورهم أولاً في البحرين والشام؛ حيث شقوا عصا الطاعة للإمام الإسماعيلي، ونهبوا ماله ومتاعه، فهرب من سوريا إلى بلاد ما وراء النهر.

- من عقائدهم الهدامة:

إفشاء شيوعية الأموال والفروج بين أتباعهم، بل امتد فُجورهم إلى القول بأن المرء لا يكمل إيمانه إلا إذا رضي بالتشريق، ومعناه عندهم أن يدخل الرجل إلى حليلة جاره فيطأها وزوجها حاضر ينظر إليه، ثم يخرج الزاني، ويبصق في وجه الزوج ويضربه على قفاه، ثم يقول له: «تصبر»، فإذا صبر، عُدّ كامل الإيمان وسماه من الصابرين!!

ويذكر المؤرخون أن علي بن الفضل أمر أتباعه من الشيعة القرامطة باليمن في ليلة تسمى ليلة الإفاضة عندهم بعد أن جمع الرجال والنساء في بيت واسع وأطفأ السراج أن يأخذ كل واحد من وقعت يده عليها !! نعوذ بالله من الخذلان.

- من أهم شخصيات الشيعة القرامطة:

عبد الله بن ميمون القداح الذي ظهر في جنوب فارس سنة ٢٦٠هـ، والفرج بن عثمان القاشاني الذي ظهر في العراق، وأخذ يدعو للإمام المستور الغائب، وحمدان قرمط بن الأشعث وأحمد ابن القاسم الذي بطش بحجاج بيت الله من أهل السنة، ويُعد الحسن بن بهرام المعروف بأبي سعيد الجنابي هو المؤسس لدولة القرامطة الإسماعيلية.

٢- الإسماعيلية الفاطمية:

والفاطمية حركة إسماعيلية مرت بعدة أدوار: أولها دور الستر، ويبدأ من موت إسماعيل بن جعفر إلى ظهور عبيد الله المهدي، ثم دور الظهور، والذي بدأ بظهور عبيد الله المهدي الذي أقام بسوريا ثم هرب إلى شمال إفريقيا، وأسَّس أول دولة للإسماعيلية الفاطمية في تونس.

- ومن أبرز العلماء الفاطميين:

أ- المنصور بالله (أبو طاهر إسماعيل).

ب- المعز لدين الله، الذي فُتحت مصر في عهده سنة ٣٦١هـ، وتولى المعز حكمها.

ج- العزيز بالله (أبو منصور نزار).

د- الحاكم بأمر الله (أبو علي منصور).

هـ- الظاهر (أبو الحسن علي).

و- المستنصر بالله (أبو تميم).

واستمرت الإسماعيلية الفاطمية تحكم مصر والحجاز واليمن حتى زوال دولتهم على يد البطل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

٣- الحشاشون:

سموا بهذا الاسم لإفراطهم في تدخين الحشيش، وهم إسماعيلية انتشروا في بلاد الشام وفارس، ومن أبرز شخصياتهم:

أ- كيا بزرك أميت.

ب- محمد بن كيا بزرك.

ج- الحسن الثاني بن محمد.

د- ركن الدين خورشاه.

وسقطت قلاع الحشاشين، وانتهت دولتهم أمام جيش هولاكو المغولي الذي قتل ركن الدين أحد رؤسائهم.

٤- الإسماعيلية البهرة:

والبُهرة لفظة هندية معناها «التاج»، وهم إسماعيلية الهند واليمن، وانقسموا إلى فرقتين:

أ- البُهرة الداوودية نسبة إلى قطب شاه داوود، وينتشرون في الهند وباكستان.

ب- البُهرة السليمانية نسبة إلى سليمان بن حسن، ومركزهم في اليمن حتى الآن.

وزعيم البهرة إلى الآن هو محمد بن برهان الدين الذي يقدسونه، ويسجدون له، ويقبّلون قدميه، وله الكلمة الأولى والأخيرة، ويُعد من أغنى الأغنياء، مع أن طائفته تعيش في فقر مدقع، ويعامل محمد بن برهان الدين أتباعه معاملة العبيد مع الإفراط في القسوة والشدة، وكذا كافة رؤساء البُهرة.

٥- الإسماعيلية الأغاخانية:

وهذه الفرقة ظهرت في إيران، ومن أشهر شخصياتهم حسن علي شاه، وهو الأغاخان الأول ثم جاء بعده أغا علي شاه، ثم تلاه ابنه محمد الحسين الذي كان يعيش في أوروبا منهمكًا في ملاذ الدنيا، ثم جاء من بعده كريم خان الذي مازال حتى الآن يرأس هذه الطائفة.

ثانيًا: مراحل الدعوة عند الشيعة الإسماعيلية

لقد ابتدع دعاة الشيعة الإسماعيلية حيَلاً ووسائل خبيثة لاصطياد الكثير من العوام، وإدخالهم في عقيدتهم الفاسدة، ويسير الداعية الإسماعيلي مع الضحية مراحل متعددة هي:

١- مرحلة التفرس: ويُقصد بهذه المرحلة أن الداعية يجب أن يكون فطنًا قادرًا على تأويل النصوص والإيهام بأن لها باطنًا لا يعرفه أي أحد، ولهذا يجب على الإسماعيلي أن يكون مجوسيًا مع المجوس، ونصرانيًا مع النصارى، وسنيًا مع أهل السنة، ليقدم لكل واحد ما يتفق مع مزاجه وميله ومذهبه ومعتقده.

٢- مرحلة التأنيس: ويقصد بها إدخال الأنس والطمأنينة في نفس الضحية، وذلك بالتقرب إليه متظاهرًا له بالتنسك والتعبد والمواهب الرفضية.

٣- مرحلة التشكيك: حيث يجتهد الداعي الإسماعيلي في تشكيك المدعو في عقيدته؛ وذلك بالأسئلة المشككة في مقررات الشرع، وغوامض المسائل، ومتشابه الآيات، وهذه تُعد من أخطر المراحل عند الشيعة الإسماعيلية.

٤- مرحلة التعليق: حيث يوهم الداعية المدعو بأنه يعرف إجابات الأسئلة الغامضة التي طرحها عليه، لكنه لا يمكنه أن يبوح بها إلا بعد أخذ العهود والمواثيق على الضحية المسكين المتعلق بمعرفة إجابات تلك الأسئلة الغامضة.

٥- مرحلة الربط: وفيها يربط الداعية المدعو بأيمان مغلظة، وعهود مؤكدة؛ حتى لا يُفشي أو يبوح بما يذكره له.

٦- مرحلة التدليس: وهي مرحلة التدرج في بثّ الأسرار والعقائد الباطنية الإسماعيلية إلى الضحية بعد ربطه بالأيمان والعهود المؤكدة.

٧- مرحلة الخلع والسلخ: ويقصد بها خلع المستجيب من عقائده، ودخوله في معتقدات الإسماعيلية الباطنية، وهذا ما يُعرف عندهم بالبلاغ الأكبر، ومن المؤسف أن إمام البُهرة قد زار مصر سنة ١٩٦٦م، ومنحته جامعة الأزهر درجة الدكتوراه الفخرية؛ تقديرًا لخدمات هذه الطائفة في الميادين التعليمية والثقافية !!

ويوجد البهرة بكثرة ملحوظة عند جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي بالقاهرة.

أما معتقدات الإسماعيلية وعباداتهم وطقوسهم وأعيادهم ومصادر دخولهم، فهذا ما سنوضحه في المقال القادم إن شاء الله تعالى.

والله من وراء القصد.

المراجع:

١-دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، د. أحمد محمد جلي.

٢-الحركة الباطنية في العالم الإسلامي، محمد الخطيب.

٣-الإسماعيلية المعاصرة، محمد الجوير.

٤-الإسماعيلية، إحسان إلهي ظهير.

٥-أصول الإسماعيلية، برنارد لويس.



إعداد/ سعيد عامر
أمين عام لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد تحدثنا في العدد الماضي عن أن الإنسان لا يكاد يخلو من مصائب يمر بها في حياته، وهي من ابتلاء الله له، وأن على المسلم أن يصبر على المصيبة التي تنزل به؛ لأن الجزع والسخط لن يرد من قدر الله شيئًا، ولن يؤثر في حقيقة الحال، وتحدثنا عن فضل المرض، والتداوي من الأمراض، ونكمل فنقول وبالله تعالى التوفيق:

ثالثًا: ما يجوز التداوي به وما لا يجوز

١- لا يجوز التداوي بالمحرم:

نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث، والدواء الخبيث قد يكون خبثه لنجاسته وحرمته كالخمر والخبائث واللحم غير المأكول والبول؛ إلا أبوال الإبل لإذن النبي ﷺ بالتداوي بها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث». [أبو داود ٣٨٧٢ وصححه الألباني] وزاد الترمذي [٢٠٤٥] يعني «السم»، ولا فرق في الحرام بين كونه مأكولاً أو غيره؛ كالتميمة التي يعلقها المريض.

وروى البخاري عن ابن مسعود موقوفًا في المسكر «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ». [١٤ / ١٩٢]. وفي الأثر «لم يجعل الله شفاء أمتي فيما حرم عليهم».

لأن ما كان سببًا في الضرر والأذى لا يكون سببًا للشفاء.

وعن طارق بن سُويد رضي الله عنه أنه سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْخَمْرِ، فَنَهَى أَوْ كَرِهَ أَنْ يَصْنَعَهَا؛ فَقَالَ: إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ. فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ». [مسلم ١٩٨٤].

٢- التداوي بالمشروع في الدين:

أنجع دواء وأنفعه ما بيّنه من لا ينطق عن الهوى ﷺ، وكان علاجه ﷺ للمرض على نوعين: علاج بالأدوية الطبيعية، وعلاج

بالأدوية الإلهية، والدواء الآتي عن طريق الوحي قطعي يقيني الشفاء إذا قدَّر الله عز وجل، ولا ينجم عن هذا الدواء أدنى ضرر، بل الدواء قد يشفي الداء المراد شفاؤه، ويعافي من أدواء أخرى لا يفطن إليها الإنسان، ويعلمها العليم الخبير.

أما وصف الإنسان للإنسان في غير ما جاء به الوحي؛ فهو ظني الشفاء، قد يشفي إذا أراد الله، وقد لا يشفي، وإن شفى فقد يترتب على ذلك إيجاد أضرار وأمراض لم تكن موجودة من قبل، أوجدها هذا الدواء، وعلى الإنسان إذا أصيب بأمراض نتيجة التقصير في الأخذ بأسباب الوقاية أو ابتلاء من الله فليسرع بعلاجها بأسباب العلاج التي جاءت عن طريق الوحي، ثم بالعرض على الطبيب المسلم الحاذق، والتداوي بالمسنون يتلخص في أمرين:

الأمر الأول: الاستشفاء بالمعنويات، ويتلخص في:

أ- الاستشفاء بالقرآن:

قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

واختلف أهل العلم في معنى كون القرآن شفاءً على قولين:

- أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب.
- أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ، ونحو ذلك.

ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين.

فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وامرأة تعالجها أو ترقيها، فقال: «عالجيها بكتاب الله». [ابن حبان ٦٠٩٨ وصححه الألباني].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ؛ فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنْ الْغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي...» [البخاري ٢٢٧٦].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ؛ فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفِثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا...». [البخاري: ٥٧٥١].

وقد أجمع العلماء على جواز الرقى بثلاثة شروط:

١- أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه أو بصفاته.

٢- أن يكون باللسان العربي، أو بما يُعرف معناه من غير العربية.

٣- أن يعتقد أن المؤثر الحقيقي والمعيذ من الشر هو الله سبحانه وتعالى، وأن الرقى سبب ووسيلة كسائر الأسباب والوسائل، وأنه لا تأثير لها بذاتها.

فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ». [مسلم ٢٢٠٠].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قال: لَدَغَتْ رَجُلًا مِنَّا عَقْرَبٌ، وَنَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرْقِي؟ قَالَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ». [مسلم ٢١٩٩].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ لِآلِ حَزْمٍ فِي رُقْيَةِ الْحَيَّةِ، وَقَالَ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ «مَا لِي أَرَى أَجْسَامَ بَنِي أَخِي ضَارِعَةً تُصِيبُهُمْ الْحَاجَةُ؟». قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ الْعَيْنُ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ. قَالَ «ارْقِيهِمْ». قَالَتْ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: «ارْقِيهِمْ». [مسلم ٢١٩٨].

ب- الاستشفاء بالدعاء:

من أسباب الشفاء التوجه إلى الله عز وجل بالدعاء، خاصة ما ورد من أدعية مأثورة عن رسول الله ﷺ في ذلك.

فعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ. ثَلَاثًا. وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ». [مسلم ٢٢٠٢].

وفي رواية عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ أَلَمًا؛ فَلْيَضَعْ يَدَهُ حَيْثُ يَجِدُ أَلَمَهُ، ثُمَّ لِيَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ». [أحمد ٢٧١٧٩ وصححه الألباني].

والمقصود أنه يستحب للمريض أن يضع يده على موضع الألم، ويأتي بالدعاء المذكور.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ

إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ. قَالَ: «أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ». [مسلم ٢٧٠٩].

وعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، فَقَالَ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ اشْتَكَيْتُ. فَقَالَ أَنَسٌ: أَلَا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ الْبَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا». [البخاري ٥٧٤٢].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: «بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا» [متفق عليه].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ». [مسلم ٢١٨٦].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ» [البخاري ٣٣٧١].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ؛ فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مِرَارٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ؛ إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ». [أبو داود ٣١٠٦ وصححه الألباني].

وفي قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: «فَأَتَيْتُ زَمْزَمَ فَغَسَلْتُ عَنِّي الدِّمَاءَ، وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا، وَلَقَدْ لَبِثْتُ يَا ابْنَ أَخِي ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي، وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ». [مسلم ٢٤٧٣].

وقوله: حتى تكسرتْ عُكن بطني. يعني: انثنت؛ لكثرة السمن وانطوت. «وسخفة الجوع»: رقته وضعفه وهزاله.

فالدعاء والتضرع إلى الله تعالى سلاح قوي، قال تبارك اسمه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

فيجب على المسلم أن يطرح قلبه بذل وانكسار بين يدي العزيز الغفار، وأن يقوم ليبث لمولاه همومه وشكواه.

المريض في أمسّ الحاجة إلى أن يتضرع إلى الله بقلب صادق خالص، فالله وحده سبحانه القادر على كل شيء، وما على المسلم إلا أن يختار الزمان والمكان، وأن يناجي الرحيم الرحمن

لبست ثوب الرجاء والناس قد رقدوا ... وبت أشكو إلى مولاي ما أجد

فقلت يا أملي في كل نائبة ... ومن عليه لكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أموراً أنت تعلمها ... ما لي على حملها صبر ولا جلد

وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً ... إليك يا خير من مدت إليه يد

فلا تردنها يا رب خائبة ... فبحر جودك يروي كل من يرد

ما أحوج المسلم الآن إلى هذه الصلة، إلى هذا الرباط.

والمريض في أمسّ الحاجة إلى أن يتضرع إلى الله بقلب صادق خالص، فالله وحده سبحانه القادر على كل شيء.

وما على المسلم إلا أن يختار الزمان والمكان، وأن يناجي الرحيم الرحمن؛ فعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ...». [أبو داود ١٤٨١ وصححه الألباني].

وإذا رفع العبد إلى الله يديه، بذل وابتهال وتضرع وإلحاح، فإن الله يستحي أن يرد عبده دون أن يقضي له حاجته.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ؛ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا. قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ؟ قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ». [أحمد ١١١٣٣ وصححه الألباني].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنه من لم يسأل الله يغضب عليه». [الترمذي ٣٣٧٣ وحسنه الألباني].

وللحديث بقية، وصلى الله على نبيه محمد وسلم تسليمًا كثيرًا.



من نور كتاب الله

الكلمة الطيبة صدقة

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٣ - ٥٤].

من فضائل الصحابة

عثمان بن عفان رضي الله عنه

عن عبيد الله بن عدي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَكُنْتُ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَرَسُولِه ﷺ، وَآمَنْتُ بِمَا بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهَاجَرْتُ الْهِجْرَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، وَصَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَبَايَعْتُهُ، وَاللَّهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلَا غَشَشْتُهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ» [البخاري ٣٨٧٢].

من هدي رسول الله ﷺ

للوقاية من الشيطان عند الخروج

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ؛ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». قَالَ: «يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ؛ فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ». [أبو داود ٥٠٩٥ وصححه الألباني].

من دلائل النبوة

الرسول ﷺ يخبر بالفتوحات قبل وقوعها

عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ رضي الله عنه قَالَ: «تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ؛ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللَّهُ». [مسلم ٢٩٠٠].

ما أخذه الغرب عن المسلمين

علم الرياضيات

فقد عرف المسلمون الأرقام الهندية وطوروها، وابتكروا الرقم (صفر)، واستعملوه لمضاعفة الأرقام، وقد نقل الأوربيون هذه الأرقام عن المسلمين، ونقلوا كلمة (صفر)، وحرفوها إلى (زيرو)، ونقلوا علم الجبر والمقابلة التي ابتدعها محمد بن موسى الخوارزمي، وبقي اسمه كما هو في لغاتهم (الجبرا).

من أقوال السلف

عن الأحنف بن قيس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تسودوا» [كنز العمال] ومعناه: تعلموا العلم ما دمتم صغارًا قبل أن تصيروا سادة منظورًا إليكم؛ فتستحيوا أن تتعلموه بعد الكبر فتظلوا جهالاً.



من جوامع الدعاء

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [متفق عليه، واللفظ لمسلم].

من حكمة الشعر

قال المتنبي في الحث علي التزود بالمعارف التي تفيد المسلم وتشغل وقته:

خيرُ المحادث والجليس كتابُ
تخلو به إن مَلَّكَ الأصحابُ
لا مفشيًا سرًا إذا استودعْتَه
وتُنَالُ منه حكمةٌ وصوابُ

ما أخذه المسلمون من الغرب
المظاهرات والإضرابات

مما ابتُليت به ديار المسلمين في العصر الحديث ما أخذوه وقلدوا فيه الغرب، استخدامهم المظاهرات أو الاعتصامات أو الإضرابات؛ لظلم وقع عليهم، أو لنيل حق من حقوقهم، أو للتعبير عن رأيهم باللجوء إلي هذه الأمور التي تجلب على الأمة الشرور والفتن. وليس للمسلم إلا الصبر على الظلم، أو الشكوى إلى المسئولين، وإلى ولاة الأمور بالتي هي أحسن، أو لجوء المتضرر إلى القضاء. فليست هذه الأمور من الإسلام.

أحاديث باطلة لها آثار سيئة

من استشفى بغير القرآن فلا شفاه الله تعالى (موضوع) وهذا الحديث يوحي بترك المعالجة بالأدوية المادية والاعتماد فيها على تلاوة القرآن فقط، وهذا شيء لا يتفق مع سنته ﷺ القولية والفعلية؛ فقد تداوى ﷺ بالأدوية المادية مرارًا. [السلسلة الضعيفة للألباني].

قواعد ذهبية في توحيد رب البرية

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئًا.. فإن حقيقة العبد قلبه، وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كَدْحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه، ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك. [مجموع الفتاوى: ٥ / ٧].

حكم ومواعظ

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال لابنه: «يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنه من لم يكن له قناعة لم يغنه مال».

وعن قيس بن أبي حازم، قال: قال علي رضي الله عنه: «كونوا بقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل؛ فإنه لن يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل تُقُبِّلَ». [كنز العمال].



اتبعوا ولا تبتدعوا

السنة والقرآن صنوان لا يفترقان

إعداد/ معاوية محمد هيكل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسنة النبوية المباركة لها منزلة عظيمة ومكانة سامية عند المسلمين قديما وحديثا ، من حيث وجوب العمل بها والرجوع إليها عند التنازع وثبوت حجيتها واستقلالها بتشريع الأحكام ولو لم يرد بها نص قرآني، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهي مبينة للقرآن مفصلة لمجمله مخصصة لعمومه مقيدة لمطلقه وموضحة لمشكله، كل ذلك محل إجماع عند من يعتد بقولهم، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا الزنادقة والخوارج والروافض الذين فارقوا جماعة المسلمين ونابذوهم واتبعوا غير سبيل المؤمنين.

ويأتي هذا المقال تأكيداً لمكانة السنة النبوية وبياناً لعلاقتها الوثيقة بالقرآن الكريم وأنه لا ينفك أحدهما عن الآخر ولا يستغنى عنها بالقرآن، ورداً كذلك علي الفئة الضالة المنحرفة المسماة زوراً (بالقرآنيين) الذين يزعمون أنهم للقرآن يعظمون وبه يأخذون، وكذبوا فهم في الحقيقة يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، ولدين الله يحاربون ، ، والقرآن بريء منهم ومما يعملون.

حالات السنة مع القرآن

للسنة مع القرآن ارتباط وثيق فهما صنوان لا يفترقان ولهذا الارتباط حالات عدة نفصلها فيما يلي:

الحالة الأولى:

وهي أن توافق السنة القرآن أو تؤكد أمرًا ورد فيه، وفائدة ورود السنة على تلك الحالة أنها تؤكد وتقرب هذا الحكم الذي جاء في القرآن الكريم، والأمثلة على ذلك متعددة منها:

١- ما ورد في السنة من أحاديث، من مثل قوله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن خُلقن من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن

ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج».
[متفق عليه].

ومثل قوله ﷺ: «اتقوا الله في النساء؛ فإنهن عوان عندكم، أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله». [أبو داود ١٩٠٧ وصححه الألباني].

فهذه الأحاديث وغيرها مما ورد في السنة، في هذا الباب، من الإحسان إلى النساء وحسن معاملتهن موافق ومؤكد لما ورد في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

٢- ومن أمثلة ذلك أيضًا ما ورد في السنة مثل قوله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يملي للظالم، وربما قال: يمهل للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [لفظ الترمذي ٣١١٠ وأصله في البخاري].

فإن هذا الحديث موافق ومؤكد للآية كما نرى.

الحالة الثانية:

وهي أن تأتي السنة مبينة وموضحة لما في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

قال الشاطبي في الموافقات: روى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك.

قال الأوزاعي: الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب.

وهذا البيان على أنواع:

١- تفصيل المجمل:

وهو أن تفصِّل السنة ما أُجمل في القرآن الكريم، والمُجْمَل: هو لفظ لا يفهم المراد منه إلا باستفسار من المُجْمِلِ، وبيان من جهته يعرف به المراد.

ومن أمثلة ذلك ما فصلته السنة من مواقيت الصلاة، وعدد ركعاتها، وكيفياتها مثل ما ورد من قوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي». [البخاري ٦٠٠٨].

وغير ذلك من الأحاديث، فإنه مفصل لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

ومن أمثلة تفصيل المجمل أيضًا: ما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «فيما سقت السماء والعيون العشر، وما سقي بالنضح نصف العشر». [البخاري: ٣ / ٤٠٧].

فهذا الحديث مفصل لما أجمل في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

٢- تخصيص العام:

وهو أن تخصص السنة أمرًا عامًا ورد في القرآن، والعام: هو لفظٌ يستغرق جميع ما يصلح له بوضع واحد، والتخصيص هو صرف الدلالة أو الحكم إلى بعض العام، أو إلى أحد أنواعه. [ينظر: الذخيرة في أصول الفقه].

أ- ومن أمثلة ما ورد في السنة من تخصيص العام ما ورد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ فقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم من الآية الكريمة أن المقصود بالظلم عمومه، وهو يشمل أنواعًا كثيرة: ظلم الإنسان لنفسه، وظلمه لجيرانه، وغيرهما.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾. شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. [متفق عليه].

فبيَّن ﷺ أن الظلم هنا مخصوص، وهو الشرك، لا عموم لفظ «الظلم»، وتلا ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

فقد خصصت السنة اللفظ العام الذي ورد في القرآن الكريم، وبينت أن المقصود بالظلم أشده وأقبحه، وهو الشرك.

ب- ومن أمثلة تخصيص العام أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم: " أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد ، وأما الدمان: فالكبد والطحال" (صحيح الجامع: ٢١٠) فهذا الحديث مخصص لعموم القرآن في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...﴾ [المائدة: ٣]، فالآية هنا نصت على تحريم عموم الميتة والدم ، والسنة

استثنت من الميتة "السمك والجراد" ومن الدم "الكبد والطحال".

٣- تقييد المطلق:

المطلق: هو ما دل على شائع في جنسه والمقيد: هو اللفظ يضاف إلى مسماه معنى زائد عليه فيُخرجه عن إطلاقه. [ينظر: الحديث الشريف من الوجهة البلاغية ص١٤].

والأمر المطلق يرد في القرآن الكريم فتأتي السنة فتقيد هذا الإطلاق الذي ورد في القرآن الكريم:

أ- ومن أمثلة ذلك ما ورد في القرآن الكريم في حد السرقة - مثلاً - في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

ففي هذه الآية يأمر الله بقطع يد السارق، وهذا أمر مطلق، فهل تقطع اليد اليمنى؟ أم اليسرى؟ أم اليدان معًا؟ ثم أين موضع القطع؟ هل هو من العضد؟ أم من الرسغ؟ وهذا كله إطلاق في الآية، قيدته السنة ببيانها أن المقصود بالأيدي إحداهما، ويبدأ في القطع باليد اليمنى، وأن موضع القطع من الكف لا من المرفق، وأن القطع يكون في سرقة ما قيمته ربع دينار فصاعداً، والدينار يعادل (أربعة جرامات وربع الجرام من الذهب)، وهكذا فعل رسول الله ﷺ. فقد روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقطع في ربع دينار فصاعدًا. [أبو داود ٤٣٨٥ وصححه الألباني].

فهنا قد حددت السنة القطع، وأن اليد لا تُقطع في أقل من ربع دينار.

ب- ومثاله أيضًا تقييده ﷺ الوصية المطلقة في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]، بالثلث في قوله ﷺ: «الثلث والثلث كثير». [البخاري ٥٣٥٤ ومسلم: ١٦٢٨].

٤- أن توضح السنة أمرًا مشكلاً ورد في القرآن الكريم:

والأمر المشكل: هو الملتبس الذي يلتبس على القارئ أو السامع فيختلط في غيره ولا يستطيع تحديده.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فقد فهم بعض الصحابة - وهو عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه - من لفظ الآية أن المقصود به العقال الأبيض من العقال الأسود، وجعل يمسك بهما وينظر فيهما؛ فإذا ميز الأبيض من الأسود أمسك عن الطعام والشراب، فبين له النبي ﷺ توضيحًا للإشكال أن المراد من الخيط الأسود هو سواد الليل، والمراد من الخيط الأبيض هو بياض النهار، وذلك لا يكون إلا بطلوع الفجر الصادق.

فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ الآية. قال عدي: يا رسول الله، إني أجعل تحت وسادتي عقالين: عقالاً أبيض وعقالاً أسود. أعرف الليل من النهار، فقال رسول الله ﷺ: «إن وسادك لعريض، إنما هو سواد الليل وبياض النهار». [أبو داود ٢٣٥١ وصححه الألباني].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: أنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ الآية. ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾؛ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعده: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار. [البخاري: ١٩١٧].

الحالة الثالثة:

استقلال السنة بتشريع بعض الأحكام التي لم ترد في القرآن

"اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام ..." (إرشاد الفحول / الشوكاني)

والسنة في ذلك تأتي بدور أساسي - فوق ما سبق من بيان، أو تفصيل، أو تقييد - أو تخصيص - وهو تمام التشريع الإسلامي، وهي في ذلك لا تخرج عن الإطار العام الذي حدده القرآن بوجوب طاعة الرسول ﷺ، وأن في ذلك طاعة الله.

وقد دل على ذلك القرآن والسنة.

أ- فمن القرآن الكريم: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٩٢].

قال الشاطبي: وسائر ما قرن فيه طاعة الرسول بطاعة الله فهو دال على أن طاعة الله ما أمر به ونهى عنه في كتابه، وطاعة الرسول ما أمر به ونهى عنه مما جاء به مما ليس في القرآن؛ إذ لو كان في القرآن لكان من طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

يقول الشاطبي: فقد اختص الرسول عليه الصلاة والسلام بشيء يطاع فيه، وذلك السنة التي لم تأت في القرآن. [الموافقات للشاطبي: ٤ / ١٣-١٤].

وعن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله..» الحديث. [أخرجه أبو داود ٣٨٤٩، وصححه الألباني].

قال الإمام الخطابي: في قوله: «أوتيت الكتاب ومثله معه، يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطي من الظاهر المتلو.

ثانيهما: يحتمل أن يكون معناه أنه أوتي الكتاب وحيًا يتلى، وأوتي من البيان أي أُذن له أن يبين ما في الكتاب، وأن يزيد عليه فيشرع ما ليس له في الكتاب ذكر، فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به، كالظاهر المتلو من القرآن. [معالم السنن للخطابي: ٥ / ١٠].

وقد ثبت في السنة أحكام كثيرة استقلت بذكرها واختصت بتشريعها، فوجب العمل بها ومن هذه الأحكام:

١- تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها». ووفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها». [البخاري: ٥١٠٩].

٢- تحريم الحُمر الإنسية (الأهلية):

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: نهى النبي ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر. [البخاري: ٤٢١٧].

٣- تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير:

فعن أبي ثعلبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع. [البخاري ٥٥٣٠]، وفي رواية مسلم: «وكل ذي مخلب من الطير». [مسلم ١٩٣٤].

٤- النهي عن قتل المسلم بالكافر:

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سأله قيس بن عباد هل عهد إليه رسول الله ﷺ شيئًا لم يعهده إلى الناس عامة؟ قال: «لا، وأخرج إليهم كتابًا وفيه: ألا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده». [أبو داود: ٤ / ٦٦٩، وصححه الألباني].

٥- ذكاة الجنين ذكاة أمه:

فعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمه». [أبو داود ٢٨٣٠ وصححه الألباني].

فائـــدة:

قال ابن القيم رحمه الله: وردت السنة الصحيحة الصريحة المحكمة بأن ذكاة الجنين ذكاة أمه ، خلاف الأصول وهو تحريم الميتة،فيقال: الذي جاء على لسانه تحريم الميتة استثنى السمك والجراد من الميتة، فكيف وليست بميتة،فإنها جزء من أجزاء الأم والذكاة قد أتت علي جميع أعضائها فلا يحتاج أن يفرد كل منها بذكاة.

والجنين تابع للأم وجزء منها، فهذا مقتضى الأصول الصحيحة ولو لم ترد السنة بالإباحة، فكيف وقد وردت بالإباحة الموافقة للقياس والأصول, وقد اتفق النص والأصل والقياس.

وهكذا فإن السنة قد تستقل ببعض الأحكام، وأحكامها في مجموعها لا تخرج عن مشكاة القرآن، قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه».

قال الإمام الشافعي: وما سن رسول الله ﷺ فبحكم الله سنه، وكذلك أخبرنا الله في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وقد سن رسول الله ﷺ مع كتاب الله، وسنَّ فيما ليس فيه بعينه نص كتاب، وكل ما سن فقد ألزمنا الله اتباعه، وجعل في اتباعه طاعته, وفي العدول عن اتباعه معصيته... [الرسالة للإمام الشافعي].

وقد ذكر نحوًا من ذلك ابن القيم في كتابه «إعلام الموقعين» حيث قال: «فما كان منها زائدًا على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ؛ تجب طاعته فيه، ولا تحل معصيته، وليس هذا تقديمًا على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله، ولو كان رسول الله ﷺ لا يُطاع في هذا القسم؛ لم يكن لطاعته معنًى، وسقطت طاعته المختصة به. وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.».

والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام, فاعتبروا يا أولي الألباب.

والله من وراء القصد.



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، فمما لا شك فيه أن الصلاة خير عمل يعمله العبد بعد توحيده لربه، ولذلك كانت من أهم مفاتيح الجنة.

عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة الصلاة، ومفتاح الصلاة الوضوء» *[الترمذي (٤)، وقال الألباني: الشطر الثاني صحيح لغيره].*

إن أعظم نعمة امتن الله بها على عباده المؤمنين هي نعمة الإيمان بالله عز وجل، والخضوع لربوبيته ثم النعمة الأخرى ما افترض عليهم من الصلاة؛ خضوعًا لجلاله، وخشوعًا لعظمته، ولم يفترض عليهم بعد توحيده والتصديق برسله فريضة أعظم من الصلاة، وأخبر أن ذلك أمره لهم وللأنبياء والأمم من قبلهم.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٤١].

وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤- ٥٥].

وقال تعالى عن الأنبياء من ذرية إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣].

وقال تعالى لكليمه موسى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

ولم يجد سحرة فرعون طاعة يرجعون بها إلى الله سبحانه وتعالى سوى السجود، وهو أعظم ما في الصلاة ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا

﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠: ١٢٢].

وأمر الله موسى أن يصلي بمصر مع بني إسرائيل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

وقال المسيح عيسى ابن مريم -عليه السلام- في مهده: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣١].

وقال عن زكريا -عليه السلام-: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

فالصلاة عبادة الله في الأرض، ولو علم شيئًا أفضل من الصلاة ما قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

وقال عن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣].

وقال عن داود -عليه السلام-: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

وقال سبحانه عن جميع الأنبياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا». [متفق عليه].

الصلاة على مواقيتها تقود إلى الجنة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا». قُلْتُ: وَمَاذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ». قُلْتُ وَمَاذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». [مسلم: ٨٥].

وعن مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ قَالَ حدثني أَبُو أَيُّوبَ -رضي الله عنه- أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ؛ فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِزِمَامِهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَوْ يَا مُحَمَّدُ - أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ.

قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ وُفِّقَ - أَوْ لَقَدْ هُدِيَ - قَالَ كَيْفَ قُلْتَ؟». قَالَ فَأَعَادَ. فَقَالَ النبي ﷺ: «تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ. دَعِ النَّاقَةَ». [مسلم: ١٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ.

قَالَ: «تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ».

قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا شَيْئًا أَبَدًا وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُ.

فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا». [متفق عليه].

وعَنْ جَابِرٍ -رضي الله عنه- قَالَ: أَتَى النبي ﷺ النُّعْمَانُ بْنُ قَوْقَلٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الْمَكْتُوبَةَ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلاَلَ، أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ النبي ﷺ: «نَعَمْ». [مسلم: ١٥].

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ -رضي الله عنه- قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ. قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ.

ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ قَالَ: ثُمَّ تَلاَ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رسول اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» [الترمذي ٢٦١٦ وصححه الألباني].

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ: مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ، وَصَامَ رَمَضَانَ، وَحَجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَأَعْطَى

الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، وَأَدَّى الأَمَانَةَ». قَالُوا: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، وَمَا أَدَاءُ الأَمَانَةِ؟ قَالَ: الْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ». [أبو داود ٤٢٩ وصححه الألباني]. وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ». [متفق عليه].

ثناء الله على المصلين

أثنى الله -سبحانه وتعالى- على عباده المؤمنين، ووصفهم بأوصاف أعظمها -بعد الإيمان به- أنهم يقيمون الصلاة، قال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة:٣].

وقال جل وعلا: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦- ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١]. وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥-٢٠].

وقال جل في علاه: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٧].

صلاة النوافل

عن عقبة بن عامر الجهني -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ، وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ يُقْبِلُ بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ عَلَيْهِمَا؛ إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ». [أبو داود ٩٠٦ وصححه الألباني].

وعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ ثَابَرَ عَلَى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً مِنَ السُّنَّةِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ: أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ». [الترمذي ٤١٤ وصححه الألباني].

من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها:

عن أم حبيبة - رضي الله عنها - تقول: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ». [الترمذي ٤٢٨ وصححه الألباني].

من صلى الضحى:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «أوصاني خليلي بثلاث: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام». [متفق عليه].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلاَمَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ؛ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى». [مسلم ٧٢٠].

عقوبة تارك الصلاة

قال الله تبارك وتعالى عن الذين بدلوا وضيعوا: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٣].

وقال جل وعلا: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥].

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ». [مسلم: ٨٢].

حسرة الشيطان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ - وفي رواية أبي كُرَيْبٍ يَا وَيْلِي - أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ». [مسلم ٨١].

والبقية في اللقاء القادم، والحمد لله رب العالمين.







التوتر الأسري عند الاختبارات


إعداد/ جمال عبدالرحمن

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فمع قرب الاختبارات السنوية يحدث التوتر الأسري، وتُعلن الطوارئ، ويكثر الكلام في وسائل الإعلام، ويزداد الضغط النفسي إلى أن تنتهي حرب الامتحانات وتُعلَن النتائج، ويُكشف المستور، فإما إلى التوفيق، وإما إلى الإخفاق، الذي يعقبه في بعض الأحيان، المرض والإعياء والغثيان، وربما وصل إلى الهذيان، وكذا التأثرات النفسية والأمراض العصبية.

ولا شك أنه مع الإيمان والإحسان، لا يحدث مثل هذا الخلل والاضطراب.

ولمناقشة هذه القضية من جميع جوانبها مناقشة شرعية، لنعرف كيف نتجاوز الاختبارات، وكيف نستفيد منها للدنيا والآخرة، كان هذا المقال الذي نستعين فيه برب العزة والجلال، فنقول:

أولاً: هل الامتحانات والاختبارات سبب للتوتر في الأسرة؟

من البديهي أن كل إنسان جاد في عمله وأهدافه، حينما يقبل على اختبار؛ فإنه على أقل تقدير يكون مهمومًا ومهتمًا بإعداد العدة التي بها يصل إلى ما يريد، كما أن كل إنسان غيور يطمح إلى معالي الأمور، ويتطلع إليها، فيخشى التراجع والتردي، لكنه قد يريد شيئًا والله يريد شيئًا آخر، وقد يتمنى أحدنا الأماني، ويحدّثه قلبه بنَيْلها، ويحول الله سبحانه بينه وبين ما يشتهي، وقد يعطيه الله ما أراد، ولله الحكمة البالغة في العطاء والمنع، جل في علاه.

قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والمؤمن الصادق يتردد مع هذه المتناقضات بين أمرين: إما أن يعطيه الله سبحانه بُغْيَته، ويحقق له دعوته؛ فيرى السراء فيشكر، وإما أن يحول الله تعالى بينه وبين ما يشتهي؛ لعلمه سبحانه أن الخير له في غير هذا، فيرى الصبر على ما قضى الله تعالى وقدر، فهو في الحالين عابد وعبد لله جل وعلا، راضٍ بما قسم الله له، خاصة إذا كان قد استنفد كل ما يستطيعه من الأسباب، واجتهد ولم يقصر، وهذا هو المتوكل على الله، الراضي بقضائه، ولا يكون ذلك إلا لأهل الإيمان.

فهم يعلمون قول رسولهم الكريم ﷺ: «إن رُوحُ الْقُدُس نفث في رُوعي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُم اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلا بِطَاعَتِهِ». [الطبراني في الكبير ٧ / ١٨١، وأبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني في صحيح الجامع].

ثانيًا: في الاختبارات عبرة:

إن الذي يباشر الاختبارات، ويعتريه الخوف

والفزع من العاقبة، ينبغي له أن يعلم ويفهم أن كل اختبارات الدنيا -عظمت أو قلَّت- هينة، وهي دون الاختبار الذي نحياه ونعيشه، وستظهر نتيجته وعاقبته في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، والذي سيَقْدَم على ربه عابداً موفقًا مسددًا، فهو الناجح المفلح الفالح، والذي سيأتي ربه راسبًا وقلبه فاسدٌ، فلن ينفع يومها مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ثم ليذكر كل إنسان أن اختبارات الدنيا لمن أخفق فيها يمكن تدارك هذا الإخفاق بتعديله أو تبديله، لكن الإخفاق في الآخرة لا يملك الإنسان ذرة في تداركه، إلا أن يدركه الله برحمة من عنده.

ثالثًا: أسباب الإخفاق في الاختبارات:

١- أول ذلك: التوتر النفسي الناشئ عن الشحن الاجتماعي والإعلامي؛ الذي يصور التراجع وتغير المسار بنهاية العالم ونهاية الحظ ونهاية السعادة، والله سبحانه خلقنا وقسم أرزاقنا وأعمالنا ووظائفنا، وفاضَل بيننا في كل ذلك لتقوم الحياة على الميزان بلا خلل، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

٢- المشكلات الزوجية التي تعكر صفو الأولاد، وتجعلهم يعيشون هموم الأسرة؛ فيذهب تركيزهم، ومن تلك المشكلات الشقاق الحاصل داخل الأسرة وضرب الزوجة والطلاق.. إلخ.

٣- الإهمال وعدم الجدية في طلب العلم والدراسة، وعدم الاستفادة بالوقت الذي يضيع بلا فائدة، اللهو في صحبة الفتيان للفتيات، وتبادل الرسائل والاتصالات، ورفقة السوء التي تتسبب في ضياع الأوقات.

٤- المعاصي المنتشرة والتي يعاقب الله بها عباده، قال الله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. ومن أمثلة هذه المعاصي: الغيبة والنميمة، سوء التربية، الاختلاط بين الجنسين، ترك تعلم العلم الشرعي، منكرات الأفراح، المجاهرة بالمعاصي.

٥- غياب القدوة، سواء في البيت أو في كثير من دور العلم، وإيقاع الظلم والتعسف على كثير من المتعلمين بتقديم من لا يستحق التقدم عليهم في الدرجة والعمل.

٦- الاعتماد على الغش وممارسته بطريقة جعلته كالحق المكتسب المفروض، وهذا ينتج جيلاً جاهلاً ممسوخًا فاشلاً، لا همَّ له إلا تحصيل المال بالطرق الحرام لمجاراة من سبقوه وتقدموا عليه في المال والمنصب، ومثل هذا الجيل لا يستطيع خدمة بلاده ولا نفعها، بل هو عنصر ضرره أكبر من نفعه.

رابعًا: الإسلام يهتم بتهيئة جو مناسب لتفوق الأبناء:

الإسلام كما طلب منا عبادة الله تعالى والعمل للفوز في الآخرة، فإنه طلب منا أيضًا تعمير الدنيا عمارة كريمة راقية، تغمر الإنسان بالسعادة، وتجعله مرتاحًا مهيئًا لعبادة ربه جل وعلا الذي قال: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] أي: طلب منكم عمارتها، والله تعالى سخَّر لنا كل الدنيا واختراعاتها لتعيننا على تحقيق الهدف الأعلى وهو عبادته، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

وقد حث الإسلام على التنافس الشريف الذي يحقق المصلحة لأهل الإسلام، ولو كان التنافس في أعمال الدنيا، فقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» [مسلم ٢٦٦٤].

ومن تهيئة الإسلام للجو المناسب لنيل التفوق والنجاح دينًا ودنيا:

١- قول نبينا ﷺ: «احفظ الله يحفظك» [الترمذي ٢٥١٦ وصححه الألباني]. وأمر بأن يطلب الإنسان التوفيق من ربه؛ لأنه لا يملك التوفيق إلا هو سبحانه، فقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾.

٢- أمر الإسلام بتخفيف الأكل، وعدم ملء البطن؛ لما له من أضرار صحية وعقلية، فقال ﷺ: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِه، بِحَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكَلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهُ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهُ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِه» [رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع].

٣- منع الإسلام مصاحبة الأشرار الذين يردون المرء على عقبيه فينقلب خاسرًا، فقال سبحانه عن الأشرار: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

٤- أمر الإسلام بالدعاء إذا استصعب أمر من الأمور، فكان النبي ﷺ يقول إذا استصعب شيء: «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل

الحزن إذا شئت سهلاً». [الضياء في المختارة ٢ / ٢٨٨ وصححه الألباني].

٥- نهى الإسلام عن السمر والسهر بعد العشاء بدون فائدة، وأمر باستثمار الأوقات المباركة كوقت البكور، فعَنْ صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا». قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً بَعَثَهَا أَوَّلَ النَّهَارِ، وَكَانَ صَخْرٌ تَاجِرًا فَكَانَ لا يَبْعَثُ غِلْمَانَهُ إِلاَّ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ؛ فَكَثُرَ مَالُهُ حَتَّى كَانَ لا يَدْرِي أَيْنَ يَضَعُهُ. [أحمد، والأربعة، وابن حبان، وصححه الألباني]

٦- عالج الإسلام الأرق والفزع من النوم؛ فقال ﷺ: «إذا فزع أحدكم من النوم فليقل: بِسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ». [الترمذي، وحسنه الألباني].

٧- عوَّد الإسلامُ المسلم الخارج من بيته أن يتوكل على الله عند خروجه فيقول: «اللهم إني أعوذ بك أن أَضل أو أُضل، أو أَزل أو أُزل، أو أَظلم أو أُظلَم، أو أَجهل أو يُجهل عليّ». [أبو داود ٥٠٩٤ وصححه الألباني].

ولأن التوكل على الله كفاية من كل شر، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

٨- وأمر الإسلام الأبوين أن يعوِّذا أولادهما في خروجهم ودخولهم من الشرور، وهذه سنة من سنن الإسلام وملة التوحيد، فكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فيقول: «أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ». ثُمَّ يَقُولُ: «كَانَ أَبُوكُمْ يُعَوِّذُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ». [أبو داود ٤٧٣٧ وصححه الألباني].

خامساً: نصائح لأهل الإسلام لاجتياز الاختبارات (دنيا وآخرة)

١- لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد؛ حتى لا تتراكم الأعمال وتتزاحم الأشغال، ولا يتم الإتقان عند محاولة إنجاز ذلك كله.

٢- فإذا كان لا بد من التأجيل أو نية عمل شيء من الغد؛ فلا ﴿تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

وقد نوى سليمان عليه السلام أن يطوف على سبعين امرأة من نسائه في ليلة واحدة فقال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، ولم يستثن، فماذا حدث؟ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ نَبِيُّ اللَّهِ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ أَوِ الْمَلَكُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ. فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ إِلاَّ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلامٍ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ». [متفق عليه واللفظ لمسلم].

٣- تنظيم الوقت وعدم إضاعته، والاستفادة بالأوقات التي أرشد الشرع إلى بركتها.

٤- التسمية عند بدء كل عمل، فإن اسم الله لا يَضُرُّ معه شيء في الأرض ولا في السماء.

٥- تحديد الأهداف، وإتقان الوسائل، والأخذ بجميع أسباب النجاح والفلاح، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

٦- وينبغي الصبر والمصابرة، وبذل المجهود من تقوى الله تعالى الذي قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٧- تحسين النية بأن ينوي الإنسان بعمله، ولو كان دنيويًا وجه الله، ويقصد نفع المسلمين وخدمتهم، وتطوير بلادهم ودولتهم، ولا يكون همّه نفسَه وحسب.

٨- تهيئة الجو المناسب للمذاكرة والدرس؛ وذلك بالراحة الكافية وبالبعد عن المشاكل والمعاصي، والبعد عن الرفقة السيئة التي لا تحرص على الخير بل على الفساد.

٩- متابعة الأولاد في دخولهم وخروجهم ودروسهم، وعدم الإفراط في الثقة بهم.

١٠- توجيه الأولاد إلى الاستعانة بالله في كل أمر، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا؛ فَقَالَ: يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ؛ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ؛ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ؛ رُفِعَتْ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ». [الترمذي ٢٥١٦ وصححه الألباني]

١١- الدعاء للأبناء، وعدم الدعاء عليهم.

فعن جابر رضي الله عنه في حديثه الطويل وقصة أبي اليَسَر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا على أولادكم، ولا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسْأَلُ فيها عطاءً فيستجيب لكم». [مسلم: ٣٠٠٩].

١٢- كفّ الأولاد عن اللعب عند دخول الليل؛ لأن هذا وقت انتشار الشياطين فتضرهم، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ - أَوْ أَمْسَيْتُمْ - فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ» [متفق عليه].

والحمد لله رب العالمين.



أحكام الوضوء

صفة وضوء النبي ﷺ (١)

إعداد: د/ حمدي طه

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد تكلمنا في العدد السابق عن شروط الوضوء، واليوم نتحدث عن كيفية الوضوء، والأصل في بيانه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦]، فقد نصت الآية على أركان الوضوء، ثم جاءت السنة لتبين لنا كيفية أداء هذه الأركان.

ومدار صفة وضوء النبي ﷺ على عدة أحاديث؛ رواها عنه جمع من الصحابة، وليس هناك مجال لسردها جميعًا، ولكنا نكتفي بحديث من أجمع الأحاديث في وصف وضوء النبي ﷺ كاملاً، ثم نذكر مواضع الاستشهاد من الأحاديث الأخرى بحسب الحاجة إليها، والمنصف عليه أن يجمع هذه الأحاديث جنبًا إلى جنب حتى يصل إلى الحق.

أخرج مسلم في صحيحه أن حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ أَخْبَرَ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ - رضي الله عنه - دَعَا بِوَضُوءٍ؛ فَتَوَضَّأَ فَغَسَلَ كَفَّيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْثَرَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْمِرْفَقِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْكَعْبَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». [مسلم ٥٦٠، وأصل الحديث متفق عليه].

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَكَانَ عُلَمَاؤُنَا يَقُولُونَ هَذَا الْوُضُوءُ أَسْبَغُ مَا يَتَوَضَّأُ بِهِ أَحَدٌ لِلصَّلَاةِ.

أولاً: كيفية الوضوء شاملة الواجبات والسنن

أول ما يبدأ به المرء إذا أراد الوضوء أن ينوي، والنية محلها القلب، ولا يصح الجهر بها، ثم ينطق بالبسملة ثم يغسل كفيه ثلاثًا، ثم يتمضمض ويستنشق ويستنثر ثلاثًا، ثم يغسل وجهه ثلاثًا، ثم يغسل يده اليمنى ثلاثًا، ثم يده اليسرى ثلاثًا، ثم يمسح برأسه، ثم يغسل رجله اليمنى إلى الكعب ثلاثًا، ثم رجله اليسرى إلى الكعبين ثلاثًا.

ثانيًا: معرفة حكم هذه الأفعال حسب ترتيبها

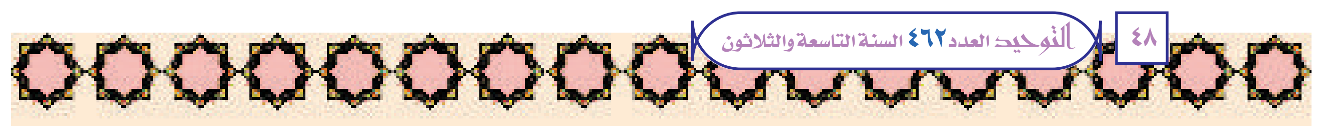
١- النية:

ذهب أكثر أهل العلم إلى أن النية واجبة في الوضوء، سواء من قال منهم بكونها ركنًا من أركان الوضوء، أو من قال بأنها شرط من شروطه؛ فالجميع متفقون على أن الوضوء بدونها لا يصح؛ لقوله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وإنما لكل امْرِئٍ مَا نَوَى...» الحديث [البخاري: ١].

٢- التسمية على الوضوء:

ذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين، وأهل الظاهر، إلى أن البسملة واجبة في الوضوء لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ، وَلَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ» [أبو داود ١٠١ وصححه الألباني].

قالوا: والحديث يدل على وجوب التسمية في الوضوء؛ لأن الظاهر أن النفي للصحة لكونها أقرب



إلى الذات وأكثر لزومًا للحقيقة. [نيل الأوطار للشوكاني ١ / ١٦٥ بتصرف].

وذهب جمهور الفقهاء إلى أن التسمية في أول الوضوء مستحبة، واحتجوا لذلك بأن الروايات التي عليها مدار صفة وضوء النبي ﷺ لم يُذكر فيها التسمية، وأكثر هذه الروايات كانت على جهة التعليم، ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة. فدل ذلك على أن قوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه». يتوجه إلى نفي الكمال لا نفي الصحة والإجزاء، وما ذهب إليه جمهور الفقهاء هو الأرجح لقوة دليلهم.

٣- غسل الكفين:

اتفق الفقهاء على استحباب غسل اليدين إلى الرسغين في ابتداء الوضوء؛ للأحاديث الواردة في صفة وضوء النبي ﷺ، ومنها حديث عثمان بن عفان المتقدم، وفيه: «دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلهما...» [متفق عليه].

٤- المضمضة والاستنشاق:

المضمضة هي أن يجعل الماء في فمه، ثم يديره ثم يمجّه، والاستنشاق هو إدخال الماء إلى الأنف، والاستنثار هو إخراجه من أنفه.

وإذا تقدم لك معنى المضمضة والاستنشاق والاستنثار، فاعلم أن العلماء اختلفوا في الوجوب وعدمه، فذهب جماعة من العلماء إلى الوجوب، واحتجوا لذلك بأدلة منها:

١- أن المضمضة والاستنشاق من تمام غسل الوجه؛ فالأمر بغسله أمرٌ بهما.

٢- ما ثبت في الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ ماء ثُمَّ ليستنثر». [البخاري ١٦٢].

٣- وبحديث لقيط بن صبرة رضي الله عنه، وفيه: «وَبَالِغْ في الاِسْتِنْشَاقِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ صَائِمًا» [أبو داود ١٤٢ وصححه الألباني]. وفي رواية: «إِذَا تَوَضَّأْتَ فَمَضْمِضْ» [أبو داود ١٤٤ وصححه الألباني].

قالوا: إن هذه الأحاديث دلت على أن النبي ﷺ أمر بالمضمضة والاستنشاق، وكما هو معلوم في الأصول أن الأمر يفيد الوجوب؛ فدل ذلك على وجوبهما.

وذهب جمهور الفقهاء إلى عدم وجوب المضمضة والاستنشاق في الوضوء، واحتجوا لذلك بما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...﴾ قالوا: فالوجه عند العرب ما حصلت به المواجهة، وداخل الفم والأنف ليس من الوجه.

٢- حديث رفاعة بن رافع المعروف بحديث المسيء صلاته، وفيه: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فتوضأ كما أمرك الله فاغسل وجهك ويديك وامسح رأسك واغسل رجليك...» الحديث. [اللفظ لأبي داود ٨٥٦، والحديث متفق عليه]. قال النووي: هذا الحديث من أحسن الأدلة؛ لأن هذا الأعرابي صلى ثلاث مرات فلم يحسنها، فعلَّمه النبي ﷺ فقال: «توضأ كما أمرك الله». ولم يذكر المضمضة والاستنشاق. [المجموع: ١ / ٣٦٢ بتصرف].

قُلْتُ: وهذا موضع تعليم، والقاعدة: أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، فلو كانت المضمضة والاس ﷺ، وبهذا يكون ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من عدم وجوب المضمضة والاستنشاق هو الأرجح، والله أعلم.

كيفية المضمضة والاستنشاق:

يأخذ في كفه اليمنى ماء ثم يجعل بعضه في فمه، ثم يجعل بقيته في أنفه، ثم يخرج الماء من فمه ويخرج الماء من أنفه بيده اليسرى؛ لما ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه دعا بوضوء، فتمضمض واستنشق ونثر بيده اليسرى، ففعل ذلك ثلاثًا، ثم قال: هذا طهور نبي الله ﷺ. [النسائي (٩١)، وصححه الألباني].

٥- غسل الوجه:

الوجه هو ما تحصل به المواجهة، وحدّ الوجه عرضًا ما بين الأذنين، وحده طولاً ما بين منابت شعر الرأس إلى أسفل الذقن. [الموسوعة الفقهية الكويتية ٤٣ / ٣٣٣].

حكمه: اتفق الفقهاء على أن غسل ظاهر الوجه بكامله مرة واحدة فرض من فروض الوضوء؛ لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]. [المصدر السابق: ٤٣ / ٣٣٢].

ولحديث عثمان بن عفان رضي الله عنه في وصف وضوء النبي ﷺ وفيه: «.. ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا..» [متفق عليه]، وللإجماع على وجوب غسل الوجه.

كيفيته: إما أن يغسل الوجه بالكفين جميعًا فيأخذ الماء بكفيه، ثم يغسل وجهه، وهذه الكيفية

وردت في أكثر من حديث.

وإما أن يأخذ الماء بكف ويضيفه للأخرى ويغسل بالكفين جميعًا لحديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وفيه: ثم أخذ غرفة من ماء فجعل بها هكذا أضافها إلى يده الأخرى فغسل بها وجهه.. الحديث...». [رواه البخاري ح١٤٠].

وأكمله ما ورد في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفيه، ثم أخذ بيده فصك بها وجهه وألقم إبهامه ما أقبل من أذنيه، قال: ثم عاد في مثل ذلك ثلاثًا ثم أخذ كفًا بيده اليمنى فأفرغها على ناصيته، ثم أرسلها تسيل على وجهه... الحديث». [أحمد (٦٢٥)، وصححه الألباني].

وكل هذه الكيفيات واردة وثابتة عن رسول الله ﷺ وكل واحدة منها تجزئ.

مسألة: هل يجب تخليل اللحية؟

اتفق الفقهاء على وجوب غسل ظاهر اللحية؛ لأنها من الوجه، أما باطن اللحية فذهب الجمهور إلى وجوب إيصال الماء إلى البشرة إذا كانت اللحية خفيفة، ويظهر منها بشرة الوجه تحت الشعر، أما اللحية الكثة فلا يجب غسل باطنها عند الأئمة الأربعة؛ لعسر إيصال الماء إلى البشرة، ولما ثبت من حديث ابن عباس المتقدم، وفيه: «تَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَغَرَفَ غَرْفَةً فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَرَفَ غَرْفَةً فَغَسَلَ وَجْهَهُ». [النسائي ١٠٢ وصححه الألباني].

ووجه الدلالة أن لحيته ﷺ كانت كثيفة، وبالغرفة الواحدة لا يصل الماء إلى ذلك غالبًا، وقد اتفق الفقهاء على استحباب تخليل اللحية؛ لحديث عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وفيه: «كان النبي ﷺ يخلل لحيته». [الترمذي ٢٩ وصححه الألباني].

وكيفية التخليل وردت في حديث أنس أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا تَوَضَّأَ أَخَذَ كَفًّا مِنْ مَاءٍ فَأَدْخَلَهُ تَحْتَ حَنَكِهِ فَخَلَّلَ بِهِ لِحْيَتَهُ، وَقَالَ: «هَكَذَا أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» [أبو داود ١٤٥ وصححه الألباني]. وكذلك غسل المسترسل من اللحية - وهو ما زاد عن حد الوجه - لحديث عمرو بن عنبسة وفيه: «.. قَالَ: فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَالْوُضُوءُ حَدِّثْنِي عَنْهُ. قَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ؛ فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ...» الحديث. [مسلم: ٨٣٢].

٦- غسل اليدين إلى المرفقين:

حكمه: اتفق الفقهاء على وجوب غسل اليدين إلى المرفقين؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

وذهب جمهور الفقهاء إلى وجوب غسل المرفقين مع اليدين، سواء كانت «إلى» في الآية بمعنى «مع» أو كانت لانتهاء الغاية. قال النووي في المجموع: «إن كانت لانتهاء الغاية؛ فالحد إذا كان من جنس المحدود - كما هو في الآية - دخل فيه.

واحتجوا لذلك بما ثبت عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «أنه توضأ فغسل يديه حتى أشرع في العضدين... الحديث». وفعله ﷺ بيان للوضوء المأمور به في الآية؛ فيكون غسل المرفقين من المأمور به في غسل اليدين. [الموسوعة الفقهية ٤٣ / ٣٤٢ بتصرف].

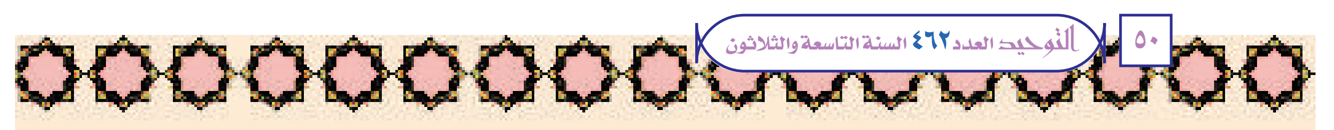
كيفيته: يغسل اليد من أطراف الأصابع إلى المرفقين، ويسن أن يشرع في العضد، كما ثبت في حديث أبي هريرة المتقدم، ويجب التنبه هنا على خطأ يقع فيه كثير من الناس؛ وهو عدم غسل الكفين عند غسل اليدين اكتفاءً بغسلهما عند بداية الوضوء، وهو مبطل للوضوء باتفاق الفقهاء؛ لعدم استيعاب محل الغسل من الفرض، فنقول لهؤلاء: إن غسل الكفين في أول الوضوء سنة مستقلة، أما غسلهما مع غسل اليدين إلى المرفقين فمن واجبات الوضوء.

ويسن تخليل أصابع اليدين عند غسلهما؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأت فخلل بين أصابع يديك ورجليك». [الترمذي (٣٩)، وصححه الألباني].

ويسن للمتوضئ أن يبدأ بغسل اليد اليمنى قبل اليد اليسرى؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: «ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى...» الحديث. [البخاري: ١٤٠].

ولحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يحب التيامن في تنعله وترجله وطهوره، وفي شأنه كله». [متفق عليه].

ونكمل في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى ما تبقى من صفة وضوء النبي ﷺ، ونسأل الله السداد والتوفيق فهو نعم المولى ونعم النصير.





أركان الإسلام والإيمان

يسأل: خيري محمد إبراهيم - أبو الروس - كفر الشيخ:

هل هناك فرقٌ بين أركان الإسلام وأركان الإيمان؟

الجواب: الدّين ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وقد وضّحها النبي ﷺ في الحديث المشهور الذي رواه مسلم وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم؛ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر. لا يُرى عليه أثر السفر. ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد ! أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلاً» قال: صدقت. قال فعجبنا له؛ يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان». قال: ثم انطلق. فلبثت مليًا. ثم قال لي: «يا عمر! أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». [مسلم، كتاب الإيمان، ح١].

المسلمون على شروطهم

يسأل: سيد عبد المطلب علي - القاهرة:

ما حكم من يحصلون من عملهم على بدل انتقال، ثم يستخدمون وسائل المواصلات التي توفرها الشركة - مع اشتراط الشركة عدم حدوث ذلك؟ وهل يختلف الحكم بين المسافات القصيرة وغيرها؟ وما الواجب على السائقين والركاب إذا علموا ذلك؟

الجواب: المال خطره عظيم؛ حلاله حساب، وحرامه عقاب، «ولا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه». [صحيح الترمذي: ٢٤٧١].

وقد نهى الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل، وتوعد على ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩-٣٠]، فعلى كل من يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه أن يتقي الله في نفسه، فلا يطعمها إلا الحلال، وأن يتقي الله في أهله، فلا يطعمهم إلا الحلال.

وإذا كانت الشركة المذكورة توفر المواصلات لبعض عمالها، وتعطي البعض بدل انتقال؛ بشرط ألا يركب مواصلاتها؛ فلا يجوز لمن يأخذ البدل أن يركب مواصلات الشركة، فإن فعل فقد اعتدى، لا فرق في ذلك بين المسافات القصيرة وغيرها، والواجب على السائقين والركاب أن يمنعوا الركاب غير المصرح لهم بالركوب.

نصاب زكاة الأوراق المالية

يسأل سائل: ما مقدار زكاة الأوراق المالية؛ حيث إنني أودع بالبنك مبلغًا من المال وأريد أن أخرج زكاته؟

الجواب: مقدار نصاب الزكاة في الدولار وغيره من العملات الورقية هو ما يعادل قيمة عشرين مثقالاً من الذهب، أو مائة وأربعين مثقالاً من الفضة، في الوقت الذي وجبت فيه الزكاة في العملة المالية الورقية، ويُخرج ذلك من الأفضل للفقراء من أحد النصابين؛ وذلك نظرًا لاختلاف الأوقات والبلاد، وتخرج الزكاة على أصل المال المودع بالبنك والعائد من هذا المال، بشرط أن يكون العائد حلالاً وليس عن طريق المعاملات الربوية، والله ولي التوفيق.

حكم بيع الثمار قبل النضج

يسأل سائل: ما حكم بيع الثمار قبل نضجها بسعر أقل من سعر السوق؛ نظرًا لطول مدة انتظار الثمار حتى تنضج؟

الجواب: عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه نهى عن بيع الثمرة حتى يبدو صلاحها. [البخاري: ٢١٩٧].

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الثمار حتى تزهي، فقيل له: وما تزهي؟ قال: حتى تحمر. فبيع الثمرة قبل بدو صلاحها لا يجوز، أما إذا بدا صلاحها، وأمنت العاهة، جاز بيعها، وإن كانت لا تُقطف إلا بعد فترة، ولا بأس بانخفاض السعر حينئذ. وأما قطف الثمار وهي نيئة قليلاً لكنها تصلح للأكل بدافع أن سعرها يكون مرتفعًا في أول ظهورها، فلا بأس به، ما دامت مقبولة الطعم والتداول والتناول. والله أعلم.

سنن الفطرة

هل قص أظفار القدم يدخل ضمن سنن الفطرة؟

الجواب: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس من الفطرة: الاستحداد (يعني حلق العانة)، والختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار». [متفق عليه]، وتقليم الأظفار يشمل أظفار اليدين والرجلين. والله أعلم.

قيام الليل

كما يقول: الرجاء تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؟

الجواب: فرض الله تعالى على رسوله والمؤمنين في أول البعثة قيام الليل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾. فقام ﷺ ومن آمن معه حتى تفطرت أقدامهم، وبعد عام نزلت آخر آية في السورة الكريمة، خفف الله عنهم، ونسخ الوجوب، وذكر أسباب التخفيف، فقال: الله يعلم أنه سيكون منكم مرضى لا يستطيعون القيام، ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: مسافرون للتجارة وكسب الرزق، غير مقيمين في بيوتهم، ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فينشغلون بالقتال عن القيام، ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، فصار قيام الليل نافلة بعدما كان واجبًا. والله أعلم.

تحذير الداعية
من القصص الواهية
الحلقة (١١١)

قصة الإدلاء والهبوط على الله في الأرض السابعة السفلى

إعداد/ علي حشيش

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث العلمية الحديثية للقارئ الكريم حتى يقف على حقيقة هذه القصة التي اشتهرت، وانتشرت في كتب العقيدة والتفسير والسنة، واتخذها الحلولية والاتحادية دليلاً على قولهم الباطل: «وهو أن الله حالٌ بذاته في كل مكان، وأن وجوده وجود الأمكنة».

تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

وإلى القارئ الكريم تخريج هذه القصة وتحقيقها.

أولا: المتن

رُوِيَ عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه؛ إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: هل تدرون ما هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا العنانُ، هذه روايا الأرض، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه، قال: هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنها الرقيع، سقف محفوظ، وموج مكفوف، ثم قال: هل تدرون كم بينكم وبينها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: بينكم وبينها مسيرة خمسمائة سنة.

ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: فإن فوق ذلك سماءين، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة، حتى عد سبع سماوات ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض.

ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: فإن فوق ذلك العرش، وبينه وبين السماء بُعد مثل ما بين السماءين.

ثم قال: هل تدرون ما الذي تحتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنها الأرض.

ثم قال: هل تدرون ما الذي تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: فإن تحتها الأرض الأخرى، بينهما مسيرة خمسمائة سنة، حتى عدَّ سبع أرَضين بين كل أرضيْن مسيرة خمسمائة سنة.

ثم قال: والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السُّفْلَى لهبط على الله، ثم قرأ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ثانيًا: التخريج

الحديث الذي جاءت به هذه القصة:

١- أخرجه الإمام الترمذي في «السنن» ح(٣٢٩٨)، قال: حدثنا عبد بن حميد وغير واحد قالوا: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة، حدثنا الحسن عن أبي هريرة، قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه... القصة.

٢- وأخرجه الإمام البيهقي في الأسماء

والصفات (٣ / ٥٦١) باب: «ما جاء في العرش والكرسي» قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا عبد الرحمن بن الحسن القاضي، حدثنا إبراهيم بن الحسين، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شيبان، حدثنا قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون ما هذا...» القصة.

٣- وأخرجه أبو الشيخ الأصبهاني، وهو الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان (٢٧٤- ٣٦٩هـ) في كتابه «العظمة» (ح٢٠٣) قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن رسته، حدثنا عثمان بن إسماعيل الأنماطي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعيد الدشتكي، حدثنا أبو جعفر الرازي عن قتادة عن الحسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ... القصة.

٤- وأخرجه الإمام الحافظ أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني المتوفى (٢٨٧هـ) في كتابه «السنة» ح(٥٧٨) قال: حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ... القصة.

٥- وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٢ / ٣٧٠) ح(٨٨١٤) قال: حدثنا سريح قال: حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ... القصة.

قلت: وسُريح هو ابن النعمان الجوهري.

٦- وأخرجه الإمام ابن الجوزي في «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» (١ / ٢٧) ح(٨) قال: أخبرنا ابن الحصين قال: حدثنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله ابن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا سريح قال: حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ... القصة.

ثالثًا: التحقيق

١- قال الإمام الترمذي في «السنن» (٥ / ٣٧٧ - شاكر) (٨ / ٢٨٣ - تحفة): «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

قلت: الحديث الذي جاءت به هذه القصة حديثٌ منكرٌ، ضعَّفه الإمام الترمذي نفسه؛ حيث قال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

يعني: ضعيف كما هو اصطلاحه حينما يفرد الحديث بهذا الوصف: «غريب»، بخلاف ما إذا قال: «حديث صحيح غريب»، أو «حديث حسن غريب»، كما هو معلوم عند أهل الحديث.

٢- وقوله: «غريب من هذا الوجه»: أي لم يروه عن أبي هريرة إلا الحسن، ولم يروه عن الحسن إلا قتادة، كما هو مبين من التخريج الذي أوردناه آنفًا مبينًا فيه جميع الطرق من حديث أبي هريرة ذاكرًا الأسانيد؛ حتى تتبين الغرابة، ويستبين لطالب العلم قول الإمام الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

٣- قلت: ولقد بيَّن الإمام البيهقي علته وعدم صحته في كتابه «الأسماء والصفات» (٣ / ٥٦٢): «وفي رواية الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه انقطاع، ولا يثبت سماعه من أبي هريرة، وروي من وجه آخر منقطع عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا». اهـ.

٤- قلت: وبهذا يتبين لطالب العلم معنى قول الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». ولم يقل: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»؛ حيث بيَّن الإمام البيهقي أنه رُوي من وجه آخر منقطع عن أبي ذر مرفوعًا»، وهو أشد ضعفًا كما سنخرجه ونبينه أيضًا.

٥- والانقطاع في حديث أبي هريرة بينه أيضًا الإمام الترمذي في السنن (٥ / ٣٧٧- شاكر) حيث قال: ويروى عن أيوب، ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد قالوا: «لم يسمع الحسن من أبي هريرة».

٦- وإلى القارئ الكريم تخريج ما أجمله الإمام الترمذي:

أ- قول يونس بن عبيد: أخرجه الإمام ابن أبي حاتم في كتابه «المراسيل» (ح١٠٢) قال: حدثنا صالح بن أحمد، حدثنا علي بن المديني، قال: سمعت سلم بن قتيبة قال: حدثني شعبة قال: قلت ليونس بن عبيد: الحسن سمع من أبي هريرة؟

قال: لا، ولا رآه قط.

ب- قال الإمام ابن أبي حاتم: حدثنا صالح بن أحمد قال: قال أبي: قال بعضهم عن الحسن: حدثنا أبو هريرة. قال ابن أبي حاتم: إنكارًا عليه «إنه لم يسمع من أبي هريرة» كذا برقم (١٠٤).

جـ- قول أيوب: أخرجه الإمام ابن أبي حاتم في كتابه «المراسيل» (ح١٠٦) قال: حدثنا علي بن

الحسن الهسنجاني، حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا عثمان، حدثنا وهيب قال: قال أيوب: «لم يسمع الحسن من أبي هريرة».

د- قول علي بن يزيد: أخرجه الإمام ابن أبي حاتم في كتابه «المراسيل» (ح١٠٧) قال: حدثنا علي ابن الحسن، حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد قال: «لم يسمع الحسن من أبي هريرة».

ل- قال الإمام ابن أبي حاتم في «المراسيل» ح(١٠٨): حدثنا محمد بن سعيد بن بلج قال: سمعت عبد الرحمن قال: سمعت جريرًا يسأل بهزًا عن الحسن: من لقي من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: سمع من ابن عمر حديثًا، ولم يسمع من أبي هريرة ولم يره.

م- قال ابن أبي حاتم في «المراسيل» (ح١٠٩): «سمعت أبي رحمه الله يقول: لم يسمع الحسن من أبي هريرة».

ن- قال ابن أبي حاتم في «المراسيل» (ح١١٠): «سمعت أبا زرعة يقول: لم يسمع الحسن من أبي هريرة، ولم يره».

هـ- قال ابن أبي حاتم في المراسيل (ح١١١): سمعت أبي يقول: وذكر حديثًا حدثه مسلم بن إبراهيم حدثنا ربيعة بن كلثوم قال: سمعت الحسن يقول: حدثنا أبو هريرة قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: قال أبي: لم يعمل ربيعة بن كلثوم شيئًا، لم يسمع الحسن من أبي هريرة شيئًا».

قلت لأبي رحمه الله: إن سالمًا الخياط روى عن الحسن، قال: سمعت أبا هريرة قال: هذا ما يبين ضعف سالم.

وأقر ذلك المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (٨ / ٢٨٤).

٧- قلت: هذا بيان لأئمة أهل الصنعة عن عدم سماع الحسن من أبي هريرة، وفوق هذا أنه مدلس؛ حيث أورده الحافظ ابن حجر في طبقات المدلسين المرتبة الثانية رقم (٧)؛ حيث قال: «الحسن بن أبي الحسن البصري، كان مكثرًا من الحديث، يرسل كثيرًا عن كل أحدٍ، وصفه بتدليس الإسناد النسائي وغيره». اهـ.

وقد عَنْعَن فلا يُقبل حديثه كما هو مبيّن من التخريج في جميع الطرق.

٨- لذلك عندما أخرج ابن الجوزي حديث القصة في «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» (١ / ٢٧ / ٨) بين العلة؛ فقال: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ والحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقيل له: من أين تحدث هذه الأحاديث؟ فقال: من كتاب عندنا سمعته من رجل، وكان الحسن يروي عن الضعفاء، وقد روى هذا الحديث أبو جعفر الرازي عن قتادة عن الحسن قال أحمد ابن حنبل: أبو جعفر مضطرب الحديث، يروي أبو جعفر عن قتادة عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس عن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السابعة لقدم على ربه عز وجل، ثم تلا: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.». اهـ.

٩- قلت: لذلك أورد الإمام الذهبي في «الميزان» (٤ / ٥١٠ / ١٠٠٦٥): هذا الحديث، وقال: «وقد روى سلمة بن الأبرش عن أبي جعفر الرازي، عن قتادة، عن الأحنف عن العباس مرفوعًا حديث: «لو دليتم الحبل إلى الأرض السابعة...». وذكر الحديث، وهو منكر ولم يلقَ قتادةُ الأحنف». اهـ.

١٠- وقال الذهبي في «العلو» (ص١١٢): «الحسن مدلّس، والمتن منكر».

تخريج وتحقيق القصة من حديث أبي ذر:

أخرج الحديث الإمام ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (١ / ٢٦) ح(٧) قال: أنبأنا زاهر بن طاهر النيسابوري، قال: أنبأنا أحمد بن الحسين البيهقي قال: أنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا: ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال: نا أحمد بن عبد الجبار قال: نا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي نصر عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: ما بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام، وغلظ السماء الدنيا خمسمائة عام، والأرضين مثل ذلك، وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك، ولو حفرتم لصاحبكم ثم دليتموه لوجد الله ثمة.

قال الإمام ابن الجوزي: هذا حديث منكر، رواه عن الأعمش محاضر، فخالف فيه أبا معاوية، فقال: عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي نصر، وكان الأعمش يروي عن الضعفاء ويدلس.

قلت: لذلك ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه «طبقات المدلسين» المرتبة الثانية برقم (٢٢) فقال: «سليمان بن مهران الأعمش: محدث الكوفة

وقارئها، وكان يدلس، ووصفه الكرابيسي والدارقطني وغيرهم».

قلت: ولقد عنعن الأعمش، ولم يصرح بالسماع، كما هو مبين في السند، فالحديث مردود بالتدليس، والتدليس نوع من الانقطاع الخفي، كما هو مقرر عند أئمة الصنعة.

علة أخرى في سند القصة من حديث أبي ذر:

العلة هي: جهالة العين.

ومجهول العين بيَّنه الحافظ في «شرح النخبة» (ص١٣٥): «هو مَن ذُكر اسمه، وانفرد راوٍ واحد بالرواية عنه».

وأما مجهول الحال فقال: «هو مَن روى عنه اثنان فصاعدًا ولم يوثَّق».

ولقد أثبت هذه الجهالة الإمام الذهبي في الميزان (٤ / ٥٧٩ / ١٠٦٦٠) فقال: «أبو نصر عن أبي ذرّ لا يدرى مَنْ هو، روى عنه الأعمش خبر: لو دليتم صاحبكم بحبل لهبط».

لذلك قال الإمام الذهبي في «العلو» ص(١٢٢): «أبو نصر مجهول، والخبر منكر».

قلت: فالخبر الذي جاءت به هذه القصة من حديث أبي ذر واهٍ جدًا، مسلسلٌ بالعلل، وهي: التدليس، والجهالة، والاضطراب، وهذا مما يزيد حديث أبي هريرة الذي جاءت به القصة وهنًا على وهن؛ بما فيها من تدليس وإرسال خفي، لذلك ضعَّف الطريقين معًا الإمام البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» (٣ / ٥٦٢)؛ حيث قال: «وفي رواية الحسن عن أبي هريرة – رضي الله عنه – انقطاع، ولا يثبت سماعه من أبي هريرة. وروي من وجه آخر منقطع عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا، أخبرناه أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد ابن أبي عمرو قالا: ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي ذر قال رسول الله ﷺ: «ما بين الأرض إلى السماء مسيرة خمسمائة سنة...» القصة.

قلت: ونقل الشيخ الألباني – رحمه الله – قول الإمام البيهقي وأقرَّه، وضعَّف الحديث، في «ظلال الجنة» في تخريج السنة ح(٥٧٨)، ثم قال: «وهو مع انقطاعه ضعيف؛ لضعف أحمد بن عبد الجبار».

قلت: لبيان درجة ضعف أحمد بن عبد الجبار؛ فقد أورده الإمام الذهبي في «الميزان» (١ / ١١٢ / ٤٤٣) فقال: «أحمد بن عبد الجبار العُطاردي، قال ابن عدي: رأيتهم مجمعين على ضعفه، وقال مُطَيَّن: كان يكذب». اهـ.

وأورده الإمام ابن كثير في تفسيره (٧ / ٣٥١) حديث أبي هريرة، وأقر علته، ثم أورد حديث أبي ذر، وقال: «وقد روى حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وأرضاه البزار في مسنده والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات، ولكن في إسناده نظر، وفي متنه غرابة ونكارة».

قلت: وحاول البعض ممن غابت عنه علل هذا الخبر الذي جاءت به القصة، ولم يدر بأنها قصة واهية أن يفسر جملة: «والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله». بأنه هبط على علم الله؛ ليردوا على الجهمية، فوقعوا في أوحال التأويل والتحريف؛ ظنًا منهم أن الخبر ثابت؛ لعدم تبحرهم في الصناعة الحديثية، أو غابت عنهم علة الحديث؛ فقد يكون أستاذًا في العقيدة، بل رئيسًا لقسمها، غابت عنه الصناعة الحديثية فيبني دليله في الاعتقاد على قصة واهية، كما بينا آنفًا في «قصة الميت الذي يقرأ القرآن من داخل القبر» لعباد القبور، لذلك قال الترمذي عقب القصة: «وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث؛ فقالوا: إنما هبط على علم الله». اهـ.

قلت: وردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– على هذا التأويل في مجموع الفتاوى (٦ / ٥٧٣ / ٥٧٤) فقال: «فإن الترمذي لما رواه قال: وفسره بعض أهل الحديث بأنه هبط على علم الله، وبعض الحلولية والاتحادية يظن أن في هذا الحديث ما يدل على قولهم الباطل، وهو أنه حالٌّ بذاته في كل مكان، وأن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك».

ثم قال: وكذلك تأويله بالعلم تأويل ظاهر الفساد من جنس تأويلات الجهمية. اهـ.

قلت: ولا يصح التأويل؛ فالتأويل فرع التصحيح، والقصة واهية منكرة لا تصح، والقول بالتأويل باطل، وكذلك القول بالاتحاد والحلول باطل؛ لأن الحديث باطل، والقصة منكرة.

قال الإمام ابن المبارك –كما في مقدمة صحيح الإمام مسلم–: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء».

هذا ما وفقني الله إليه، وهو وحده من وراء القصد. والحمد لله رب العالمين.

باب الاقتصاد الإسلامي

معاملات البنوك

طبيعة عمل البنك

إعداد د/ علي أحمد السالوس

أستاذ فخري في المعاملات المالية والاقتصاد الإسلامي بجامعة قطر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، أما بعد:

فقد تحدثنا في العدد الماضي عن «المضاربة.. القرض الإنتاجي الربوي وشركة المضاربة»، وقلنا: إن المضاربة ثابتة بالسنة، معلومة في عهد الرسول ﷺ .

وفي هذا العدد نتحدث عن:

□□ طبيعة عمل البنك □□

جاء في المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية هذا التعريف للبنك:

البنك: مؤسسة تقوم بعمليات الائتمان بالاقتراض والإقراض.

وفي الموسوعة العربية الميسرة: مصرف أو بنك: تُطلق هذه الكلمة بصفة عامة على المؤسسات التي تتخصص في إقراض واقتراض النقود.

التعريف السابق يلخص طبيعة عمل البنك، وإذا رجعنا إلى أساتذة الاقتصاد وجدنا هذا الأمر متفقًا عليه.

يقول الدكتور إسماعيل محمد هاشم في كتابه مذكرات في النقود والبنوك (ص٤٣): «يمكن تعريف البنك بأنه المنشأة التي تقبل الودائع من الأفراد والهيئات تحت الطلب أو لأجل، ثم تستخدم هذه الودائع في منح القروض والسلف».

ويقول الدكتور محمد زكي شافعي في كتابه مقدمة في النقود والبنوك (ص١٩٧): «يمكن تلخيص أعمال البنوك التجارية في عبارة واحدة هي: التعامل في الائتمان أو الاتجار في الديون؛ إذ ينحصر النشاط الجوهري للبنوك في الاستعداد لمبادلة تعهداتها بالدفع لدى الطلب بديون الآخرين، سواء أكانوا أفرادًا أم مشروعات أم حكومات، ويقبل الأفراد هذه التعهدات المصرفية - وهي التي تُعرف باسم الودائع الجارية - في الوفاء بما تزودهم به البنوك من اعتمادات وسلف؛ نظرًا لما يتمتع به التعهد المصرفي بالدفع لدى الطلب من قبول عام في تسوية الديون. وهكذا تتوسل البنوك التجارية إلى مزاولة نشاطها الذي تبرز به وجودها، وتستمد من القيام به أرباحها، بالاضطلاع تارة بمركز الدائن، وتارة بمركز المدين». اهـ.

ويقول الدكتور محمد يحيى عويس في كتابه محاضرات في النقود (ص: ٢٣٣): «تتلخص الوظيفة الرئيسة للبنوك في المجتمعات الحديثة في الجملة التقليدية: إن البنوك تقترض لكي تُقرض».

ويقول الدكتور محمد عبد العزيز عجمية في كتابه مبادئ علم الاقتصاد (ص٢٧١): «يعرف البنك التجاري أو بنك الودائع عمومًا بأنه المنشأة التي تتعامل في الائتمان أو الدَّيْن».

ومن المعروف أن الائتمان والدين مظهران لشيء واحد، وهو: القرض؛ فالدين هو التزام بدفع مبلغ معين من النقود، والائتمان هو حق تسلم مبلغ معين من النقود، ولذلك فالمبلغ المتداول بين متعاملين يُعد دينًا من وجهة نظر المدين أو المقترض، وائتمانًا أو حقًّا من وجهة نظر الدائن أو المقرِض.

ويتفق الاقتصاديون على تعريف الائتمان بأنه: تبادل قيمة عاجلة بقيمة آجلة.

وفي ندوة جمعية الاقتصاد الإسلامي بالقاهرة، والتي عُقدت آخر ذي الحجة سنة ١٤٠٩هـ تحت عنوان: الفوائد المصرفية بين الربا والربح، وحضرها الكثرة الكاثرة من رجال الاقتصاد، والعاملين في البنوك، تحدث الدكتور عبد الحميد الغزالي عن

طبيعة عمل البنك كما يدرسه أساتذة الاقتصاد لطلابهم، فلم يعترض عليه أحد، أو يذكر كلمة أو تعليقًا ما يخالف ما انتهى إليه الدكتور الغزالي، وهو ما يلي:

«تعتبر البنوك مشروعات اقتصادية تهدف إلى تحقيق أقصى ربح ممكن، ولكنها تختلف عن المشروعات الاقتصادية الأخرى في أن نشاطها يتمثل في التعامل في الديون والائتمان؛ إذ تقدم هذه البنوك خدمات ائتمانية معينة لعملائها المودعين، أي المقرضين لها، والمستثمرين لأموالها، أي المقترضين منها، وتحصل في مقابل ذلك على مدفوعات من هؤلاء العملاء، ومن هذا التعامل تحاول تحقيق أقصى ربح ممكن.

ويتكون هذا التعامل أساسًا من نوعين هما: النوع الأول: الاتجار في الديون أو الائتمان، والنوع الثاني هو خلق أو صناعة الديون أو الائتمان.

وظيفتا البنك

ومن ثم فإن البنك يقوم بوظيفتين في إطار كونه تاجرًا للديون أو الائتمان، أولاهما: الاقتراض من المودعين، وثانيهما: الإقراض للمقترضين، ويدفع للمودعين ثمنًا محددًا هو الفائدة على الودائع، ويتقاضى من المقترضين ثمنًا أعلى هو فائدة الإقراض، والفرق بين الفائدتين أو الثمنين، هو المصدر الأساسي لإيرادات البنك.

وإذا كانت الوظيفة الأولى للبنوك التجارية هي الاتجار في الديون، وهي أن تقوم بإقراض ما أُودع لديها، أو ما اقترضته من المودعين مقابل ثمن محدد، فإن وظيفتها الثانية: خلق الديون أو الائتمان، وهي وظيفة يمارسها النظام المصرفي في مجموعه، وتعني باختصار وتبسيط أن تلك البنوك تقوم بإقراض ما لم تقترضه فعلاً من أحد أو تحزه، أو تقوم بإقراض ما لا تملكه، وهذه وظيفة شديدة الأهمية والخطورة نشأت بشكل أساسي من الخصائص الذاتية لنظم الاقتراض المصرفي ووسائله، ومما يطلق عليه مؤسسة الشيكات، وهي وجود الشيك كأداة وفاء، وقابليته للتظهير الناقل للملكية.

واجتماع الوظيفتين لمؤسسة واحدة هي البنك التجاري جعله لا يتاجر في ديون التزم بها فقط، ولكنه يتاجر أيضًا فيما لم يلتزم به أو يمثل حقًا عليه، وهذا أمر لا تخفى خطورته على أي مفكر اقتصادي أو قانوني.

وقد ظهرت أنماط أخرى من البنوك مثل البنوك المتخصصة وبنوك الاستثمار والأعمال وغيرها؛ وذلك كمحاولة لتطوير وظيفة البنك التجارية، إلا أن الحقيقة التي لم تتغير هي بقاء محل النشاط لتلك البنوك الجديدة أيضًا كما هو الحال في البنوك التجارية، وبقيت خصائصها الوظيفية كما هي؛ حيث ظلت الديون أو القروض هي محل النشاط، والاتجار فيها هو مصدر الكسب، وظلت الوساطة السلبية هي حقيقة الوظيفة التي تمارسها.

كما لم يغير من طبيعة البنوك التجارية تركيزها الشديد في الوقت الحالي على وظيفة الخدمات المصرفية التي أصبحت ميدانًا للتسابق والمنافسة بين البنوك التجارية؛ إذ لم يكن الهدف من هذا التركيز سوى السعي لجذب أموال جديدة في صورة إيداعات، أو لجذب طالبين جدد لتلك الأموال، أي إن الهدف بقي حول محور الوظيفة الرئيسة: وهي الاقتراض والإقراض.

خلق النقود

ولعل الخلاصة مما سبق أننا بصدد مؤسسة محل نشاطها وتعاملها النقود: تحصلها أو تدفعها، والديون: تلتزم بها أو تُلزم بها، والقروض: تقترضها، وهذا هو محل نشاطها ومحوره، وتلك هي بضاعتها، ولا نظن نزاعًا في ذلك بين المفكرين. اهـ.

هذا هو ما انتهى إليه الدكتور الغزالي، ولم ينازعه أحد، وأنا أدرك أن الاقتصاديين يعرفون هذا تمامًا، غير أنني أقدمه لرجال الشريعة الذين يفتون في أعمال البنوك.

والوظيفة الثانية: التي أشار إليها - وهي خلق الديون أو الائتمان - ربما تحتاج إلى شيء من البيان، فهذا أمر عجيب غريب يصعب تصوره، ولا يدركه إلا من عرف جيدًا أعمال البنوك.

أيمكن مثلاً أن نتصور أن شخصًا يقترض ألفًا، ومن الألف يقرض بضعة آلاف، ويبقى عنده رصيد؟!

هذا ما تفعله البنوك الربوية ! تخلق النقود وتقرضها! تُقرض ما ليس عندها، وما لا تملكه، وتأخذ ربًا !

والأمر هنا دقيق، ولذلك أترك عرضه لرجال الاقتصاد المختصين الذين تحدث أحدهم عن المرحلة الحاسمة في تطور الفن المصرفي، وهي خلق النقود؛ فقال: دخل الفن المصرفي في دور جديد عندما تواضع الناس على قبول التزامات البنوك بديلاً عن النقود في الوفاء بالديون، سواء أكان ذلك في صورة إيصالات الإيداع، أم في صورة أوامر الصرف التي كان يحررها المودعون لدائنيهم على البنوك، فقد فطنت البنوك في كلتا الحالتين إلى إمكان إحلال تعهداتها بالدفع محل النقود فيما تمد به عملاءها من قروض، بما يترتب على ذلك من زيادة طاقتها

على الإقراض - ومن ثَمَّ على جني الأرباح - ولم يكن من العسير - وقد تمتعت ديون البنوك بالقبول العام كأداة للوفاء بالالتزامات - أن تقنع المصارف هؤلاء العملاء بملائمة اقتضاء مبالغ القروض في صورة ودائع جارية قابلة للسحب في الحال، أو في صورة سندات تتعهد المصارف بمقتضاها بالدفع لدى الطلب (بنكنوت).

ولن تخفى على القارئ أهمية هذا التطور الحاسم في تاريخ البنوك، فلم يكن حسب هذا الاستعمال النقدي لودائع (ديون) البنوك أن ضيق من نطاق أوامر الدفع؛ فأدى إلى زيادة موارد الائتمان عن ذي قبل، ولكنه أدى أيضًا إلى ما هو أكثر أهمية؛ فقد أصبح في استطاعة البنوك خلق هذه الودائع ومحوها من الوجود بما تزاوله من عمليات التسليف أو الإقراض أو التثمير؛ وإذ تقوم هذه الودائع مقام النقود في تسوية الديون بين الأفراد، فقد تهيأ لبنوك الودائع أن تزاول سلطانًا خطيرًا على عرض وسائط الدفع في النظام الاقتصادي.

ولإيضاح ذلك نفترض مرة أخرى أن جملة ما أودعه الأفراد لدى البنوك من النقود القانونية مليون من الجنيهات، وأن نسبة الرصيد النقدي الحاضر الذي تحتفظ به البنوك لمواجهة أوامر الدفع من قبل المودعين هي الربع. عندئذ يمكن للبنوك - وقد أخلت بعهداتها بالدفع محل النقود في الوفاء بالقروض - أن تقدم للناس من القروض ما قيمته ثلاثة ملايين من الجنيهات دون أن يؤثر ذلك على نسبة الرصيد النقدي الحاضر التي تقتضي دواعي الحيطة والأمان الاحتفاظ بها لمواجهة طلبات الصرف المحتملة من قبل المودعين.

وهكذا تهيأ للبنوك - وقد أودع لديها مليون من الجنيهات - أن تنشئ على دفاترها من الودائع ما قيمته أربعة ملايين، لا تمثل منها ما أودعه الناس بالفعل من نقود قانونية لدى البنوك سوى الربع - والربع فقط - على حين تتحصل الثلاثة ملايين جنيه الباقية في ودائع مخلوقة أنشأها النظام المصرفي بمناسبة ما قامت به مجموعة البنوك من عمليات التسليف والتثمير والإقراض.ومن هنا يتضح لنا سذاجة الاعتقاد بأن مصدر الودائع المصرفية الوحيد هو إيداع الأفراد لأرصدتهم النقدية في صورة عملة قانونية لدى البنوك؛ فإن الودائع الأصلية التي تنشأ في ذمة البنوك التجارية على هذا النحو لا تمثل سوى قدر محدود من مجموع الودائع الثابتة على دفاتر البنوك؛ في حين ينشأ القدر الأكبر منها بمناسبة قيام البنوك بعمليات إقراض أو تثمير يستوفيها المقترضون في صورة ودائع قابلة للسحب لدى الطلب.

ومن هنا أيضًا تتحصل الخصيصة الأساسية لما تزاوله البنوك من نشاط في ميدان الإقراض فيما تهيأ لهذه المؤسسات من إقراض الناس ما ليس عندها، أو بعبارة أدق فيما توصلت إليه من خلق الموارد التي تستعملها في إقراض عملائها في غمار عملية الإقراض ذاتها. [مقدمة في النقود والبنوك للدكتور محمد زكي شافعي ص: ١٧٠- ١٧٢].

وفي كتاب مذكرات في النقود والبنوك للدكتور إسماعيل محمد هاشم نجد عنوان الفصل الخامس: خلق نقود الودائع (ص: ٤٧).

ومما جاء في حديث المؤلف:

وقد أثبتت الخبرة العملية أنه في ظل الظروف الاقتصادية العادية تكون نسبة المسحوبات من النقود إلى مجموع ودائع البنك ثابتة إلى درجة كبيرة، وعادة لا تتجاوز هذه النسبة ١٠٪ من مجموع الودائع، بل إنه كثيرًا ما يحدث أن تقل هذه النسبة بدرجة كبيرة عن ذلك.

وتعتمد هذه البنوك التجارية على هذه الحقيقة التي تعني بقاء جزء كبير من الودائع تحت الطلب دون سحب، ومن ثم لا تحتفظ إلا بنسبة محدودة من ودائعها في شكل نقود قانونية - في حدود ١٠٪- لمقابلة طلبات السحب المحتملة، ما لم يلزمها القانون بالاحتفاظ بنسبة أكبر.

من هذا كله نلحظ ما يأتي:

١- الربا الذي يحصل عليه البنك يزيد على ربا الجاهلية بكثير.

٢- وهو كذلك أسوأ من ربا الجاهلية؛ لأن البنك يقرض بالربا ما ليس عنده، وما لا يملكه، بل ما لا وجود له في الواقع.

٣- الحسابات الجارية التي تعتبر قروضًا حسنة من المودعين تستغلها البنوك أسوأ استغلال، فتقرض أضعافها قروضًا ربوية.

ومن هنا ندرك حرمة هذا التعامل (أي الإيداع بدون فائدة) مع البنوك الربوية إلا إذا دعت الضرورة.

٤- وعلاقة خلق النقود بالتضخم وزيادة الأسعار أمر يعرفه الاقتصاديون، ويدركون خطره؛ فما تفعله البنوك الربوية ساعد على زيادة حجم هذه الكارثة.

وندوة جمعية الاقتصاد الإسلامي المذكورة آنفًا قدم لها باحث اقتصادي - وهو سمير عبد الحميد رضوان - بحثًا في موضوع طبيعة البنوك التقليدية، والوظائف التي تؤديها، ومصادر أموالها، ووجوه

استخدامها. وقد رجع إلى عشرين مرجعًا، منها خمسة باللغة الإنجليزية، وبعد الدراسة التي قدمها قال:

هل تتدخل البنوك التجارية في العملية الإنتاجية؟

ونخلص مما تقدم، ومن دراستنا لطبيعة أعمال البنوك التقليدية، إلى أن البنوك التجارية مؤسسات للوساطة المالية، لا تتدخل بطريقة مباشرة في العملية الإنتاجية، وإنما تتوسط بين المقرضين والمقترضين، فتقوم بتحويل الفوائض المالية من القطاعات ذات الطاقة التمويلية الفائضية - المقرضين أو المودعين - إلى القطاعات ذات العجز في الموارد المالية (المقترضين).

ويتمثل دخل هذه البنوك في الفرق بين ما تحصل عليه من فوائد من المقترضين، وما تدفعه من فوائد للمقرضين، أما العمولات التي تتقاضاها مقابل الخدمات التي تقدمها فتمثل جزءًا يسيرًا نسبيًّا. اهـ.

ثم قدم الباحث بعض النماذج التطبيقية من الواقع العملي، وقام بتحليلها، مؤكدًا ما انتهى إليه من الدراسة.وعلى سبيل المثال عرض المركز المالي الإجمالي للبنوك التجارية في مصر في مارس سنة ١٩٨٧م، وتبين من وجوه الاستخدام أن نسبة ما تقرضه بلغ ٨١,٧٨٪ من جملة الاستخدامات، وأن ٩,٣٧٪ كان للاستثمار في الأسهم والسندات، ومعلوم أن السندات قروض ربوية، أي إن الاستخدامات كانت أساسًا في الإقراض بفائدة، وختم الباحث دراسته بعرض الصورة التالية:

من استقراء المركز المالي لبنك الإسكندرية التجاري والبحري في ٣٠ / ١٢ / ٨٧، وكذا حساب الأرباح والخسائر عن السنة المنتهية في ٣١ / ١٢ / ١٩٨٧م استبان لنا الآتي:

١- نسبة إجمالي الودائع إلى إجمالي الموارد ٦٧٪.

٢- نسبة حقوق المساهمين إلى إجمالي الموارد ١٨,٣٪.

٣- نسبة حقوق المساهمين إلى إجمالي الودائع ٢٧,١٪.

٤- نسبة الاستثمارات المالية إلى إجمالي الاستخدامات ٥,٠٪.

٥- نسبة القروض (والسلفيات) إلى إجمالي ودائع العملاء ١٤٦٪.

حساب الأرباح والخسائر

١- نسبة الفوائد المحصلة إلى جملة الإيرادات ٨٥,٨٪.

٢- نسبة عائد الخدمات المصرفية والإيرادات الأخرى إلى إجمالي الإيرادات ١٤,٢٪.

٣- نسبة الفوائد المدفوعة إلى الفوائد المحصلة ٥٥٪.

والمؤشرات على الوجه المتقدم ليست في حاجة إلى مزيد من التعليق، وبهذا أنهى الباحث دراسته.

وللسادة فقهاء الشريعة أضيف الإيضاحات التالية:

١- حقوق المساهمين لا تعني رأس المال، وإنما يضاف إليه ما حصلوه من إيرادات العام، وما بقي من إيرادات الأعوام السابقة، ولذلك فإن من ملك أسهم بنك ربوي، وأراد التوبة، فليس له - بعد التخلص من هذه الأسهم - إلا رأس ماله والإيرادات غير الربوية، وهي نسبة قليلة كما نرى؛ أما نصيب أسهمه من الفوائد الربوية فهو مال خبيث حرام.

وعند بيان حكم التعامل في الأوراق المالية - وهي الأسهم والسندات - لا يكفي القول بأن السندات قروض ربوية، فهي حرام، وأن الأسهم حصص شائعة في شركة، فهي حلال؛ فنشاط الشركة إذا كان محرمًا فأسهمها حرام بلا شك، وإن لم تكن قروضًا ربوية كالسندات، فمن اشترى أسهمًا في بنك ربوي فهو من الذين يأكلون الربا، ويأذنون بحرب من الله ورسوله، ومن اشترى أسهمًا لشركة لصناعة الخمور فهو ملعون مطرود من رحمة الله تعالى.

٢- نسبة الاستثمارات المالية نصف في المائة (٠,٥٪)، وهي أساسًا في السندات، وقل أن تكون في الأسهم. وهذا يعني أن الاستثمار ليس من طبيعة عمل البنوك.

٣- الودائع التي اقترضها البنك أقرضها كاملة (١٠٠٪)، وأقرض أيضًا ٤٦٪ زيادة على هذه الودائع، فمن أين جاءت الزيادة؟!

تذكر ما قيل من قبل عن خلق النقود أو الائتمان!

٤- في حساب الأرباح والخسائر نلاحظ ضخامة الفرق بين الفوائد التي أخذها من المقترضين، والفوائد التي أعطاها المودعين المقرضين، فلم يعط إلا ٥٥٪، من الفوائد التي حصلها، وأخذ البنك لنفسه ٤٥٪، وهذا هو الدخل الأساسي للبنك؛ حيث إنه يمثل ٨٥,٨٪ من جملة الإيرادات.

وبعدُ:

كنت من قبل احتفظت ببعض ما نُشر من ميزانيات البنوك الربوية لأبين طبيعة عمل هذه البنوك، ولكن بعد ما سبق من عرض ودراسته أظن أن الأمر أصبح واضحًا جليًّا، لا يحتاج إلى المزيد.

وللحديث بقية في العدد القادم إن شاء الله وقدر، والحمد لله رب العالمين.



الحلقة الثانية والعشرون

إعلام المصلين والولاة بمن يقدمونه لإمامة الصلاة

إعداد المستشار/ أحمد السيد علي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، أما بعد:

فقد تحدثنا في الحلقة السابقة عن إمامة الأخرس، ونتكلم - بمشيئة الله - عن إمامة الأصم.

إمامة الأصم

أولا: تعريف الأصم

الأصم هو من به صمم، والصمم فقدان السمع، ويأتي وصفًا للأذن والشخص، فيقال: رجل أصم، وامرأة صماء، وأذن صماء، والجمع: صُمّ.

ثانيًا: المقصود بالأصم

قد يُولد المرء أصمّ، ومن ثم يكون أبكم لا يتكلم، وفي هذه الحالة ينطبق عليه ما ينطبق على الأخرس من أحكامٍ سبق ذكرها في المقال السابق، وقد يولد المرء سميعًا متكلمًا، ثم يُصاب بمرض أو حادث يؤدي إلى فقد السمع دون الكلام؛ فيكون أصم فقط، وهو ما سنتعرض لأحكام صلاته في هذه المقالة.

ثالثًا: وجوب الصلاة على الأصم

يجب على ولي أمر الأصم أن يعلّمه الصلاة، وأن يرشده إلى دخول وقتها؛ وذلك لعدم سماع الأصم للأذان، فإن لم يكن معه أحد في البيت فعليه أن يكلف واحدًا من جيرانه ممن يثق به أن يوقظه لصلاة الفجر، وأما باقي الصلوات فباستطاعته أن يتابع أوقاتها عن طريق الساعة، والنظر إلى التقاويم المنتشرة، ولا تسقط الصلاة عن الأصم؛ وذلك لأن الصلاة تسقط بغياب العقل الذي هو مناط التكليف، والأصم العاقل لم يغب عقله؛ فيجب عليه الصلاة، وعدم السماع ليس بعذر يسقط التكليف.

رابعًا: حكم إمامة الأصم

اختلف كلام الفقهاء في ذلك على قسمين:

الأول: يرى صحة إمامة الأصم للسميع وللأصم مثله، وهو مروي عن الحنابلة والشافعية.

دليله:

١- لأن الأصم لا يخل بشيء من أفعال الصلاة ولا شروطها.

٢- قياسًا على الأعمى بجامع العجز الذي لا يمنع من الإتيان بالأفعال والشروط.

٣- لأن كل من صحت صلاته: صحت إمامته، وصلاة الأصم لنفسه صحيحة؛ فإمامته لغيره صحيحة.

الثاني: يرى عدم صحة إمامة الأصم للسميع، وصحة إمامته للأصم مثله، وهو مروي عن المالكية.

دليله: أن الأصم إذا نسي شيئًا من صلاته لا يمكن تنبيهه بتسبيح ولا إشارة.

الراجح: هو الرأي الأول القائل بصحة صلاته؛ وذلك لما يلي:

١- لأنه لا يمنع من صحة الصلاة احتمالٌ عارضٌ لا يُتيقن وجوده (وهو النسيان وتنبيهه عليه)؛ وذلك لأن اليقين لا يزول بالشك.

٢- قياسًا على صحة إمامة المجنون حال إفاقته.

ومع أن الراجح هو صحة إمامة الأصم للسميع، وللأصم مثله، إلا أنه ينبغي اختيار الإمام سميعًا؛ خروجًا من الخلاف، وتكون إمامته على خلاف الأوْلى، مع مراعاة أن الأصم إذا اجتمع مع من هو أدنى منه في الحال قُدِّم الأصم، فإذا اجتمع الأصم والأمي وكان الأصم قارئًا، قُدّم الأصم، وإذا اجتمع الأصم مع امرأة قارئة قُدم الأصم؛ لعدم جواز إمامة النساء للرجال.

خامسًا: أحكام صلاة الأصم مأمومًا

إذا صلى الأصم مأمومًا فقد تُثار بعض المشكلات التي لا بد من معرفة حكمها، ومنها:

الأولى: كيفية متابعة الإمام:

قال الشيخ الألباني في «صفة صلاة النبي ﷺ»: «كان النبي ﷺ يستفتح الصلاة بقوله: الله أكبر». [رواه مسلم]. وكان يرفع يديه تارة مع التكبير. [رواه أبو داود]. وتارة بعد التكبير. [رواه البخاري]. وتارة قبل التكبير. [رواه البخاري]. وكان يجعلهما حذو منكبيه. [رواه البخاري]. وربما كان يرفعهما حتى يحاذي بهما فروع أذنيه. [رواه البخاري]. اهـ.

قال بعض العلماء: «من فائدة رفع اليدين مع التكبير أن يشاهد الأصم، وأما الأعمى فإنه يسمع التكبير». اهـ.

ومن ثم فإذا كان المأمومون صمًّا، وبعضهم بعيد عن الإمام، فيجوز للبعيد أن يلتفت إلى الإمام لتحصل المتابعة، كما يجوز للإمام أن يصلي وسط الصف الأول؛ ليشعروا برفعه من السجود، أما إذا انقطعت الكهرباء في صلاة الفجر أو العشاء ولم يستطع الصم متابعة الإمام فيجوز لكل واحد منهم أن يستقل ويتم صلاته منفردًا.

الثانية: كيفية تنبيه الإمام إذا نسي:

إذا نسي الإمام فأراد الأصم أن يذكِّره، فإن كان يستطيع نطق سبحان الله أو بعضها؛ فعليه أن ينطق بها، وإن كان لا يستطيع فعليه أن يصفق: يضرب يده على فخذه.

الدليل على ذلك:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التسبيح للرجال والتصفيق للنساء». [متفق عليه]. زاد مسلم: «في الصلاة».

٢- عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ. فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ». [مسلم ٥٣٧].

وجه الدلالة: قوله: «فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ». فعدم إنكاره ﷺ عليهم دليل على إقراره لهم فيما فعلوه من تنبيههم لمعاوية ليسكت، ومن ثَم يجوز للأصم أن ينبِّه الإمام بذلك.

والنسيان الذي يستطيع الأصم التنبيه عليه نسيان الأركان الظاهرة والحركات، لا نسيان القراءة؛ فإنه لا يمكنه سماعها.

الثالثة: استخلاف الأصم

إذا أصاب الإمام شيء أدى لخروجه من الصلاة؛ فهل يجوز له أن يستخلف الأصم مكانه؟

الأول: يرى جواز استخلافه كما تجوز إمامته.

الثاني: يرى عدم جواز استخلافه كما لا تجوز إمامته.

الراجح: جواز الاستخلاف كما تجوز الإمامة كما سبق أن ذكرنا في حكم إمامة الأصم.

الرابعة: حكم سجود التلاوة بالنسبة للأصم:

اختلف الفقهاء في حكم سجود التلاوة، فذهب جمهور الفقهاء إلى أنه سنة، وقال أبو حنيفة بوجوبه، والصحيح أنه سُنَّة؛ لما ثبت عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قرأت على النبي ﷺ «النجم» فلم يسجد فيها. [متفق عليه].

فإذا كان الأصم يصلي منفردًا، وقرأ بسورة فيها آية سجدة؛ فالجمهور يرى أنه يسن له السجود، والأحناف يرون وجوب سجوده حتى ولو لم يُسمع نفسه، أما إذا كان الأصم يصلي مأمومًا، ويشاهد الإمام يسجد دون أن يركع؛ فعليه متابعته؛ لقوله ﷺ: «إنما جُعل الإمام ليُؤتم به». [متفق عليه]، فإذا لم يستطع رؤية الإمام ولا متابعته فلا شيء عليه.

سادسًا: أحكام صلاة الأصم للجمعة:

هناك بعض الأحكام الخاصة بصلاة الأصم للجمعة، ومنها:

الأول: السعي للجمعة: قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩]، فيجب على الأصم السعي للجمعة مع عدم سماع النداء لها، وذلك على التفصيل الذي ذُكر في «وجوب الصلاة على الأصم».

الثاني: حكم وجود الصمّ في العدد المشروط لسماع خطبة الجمعة:

اختلف الفقهاء في العدد الذي تنعقد به الجمعة على عدة أقوال؛ ما بين قائل بأربعين، واثني عشر، وأربعة أحدهم الإمام، وثلاثة أحدهم الإمام، واثنين أحدهما الإمام. والصحيح ما نُقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أنها تنعقد بثلاثة؛ إمام ومستمعيْن اثنين، فإذا وُجد الصم في هذا العدد فهل تنعقد بهم الجمعة؟ اختلف الفقهاء في ذلك على ثلاثة أقوال:

أحدها: يرى أنه تنعقد بهم الجمعة وهو رأي الجمهور، ثانيها: يرى أنه لا تنعقد بهم الجمعة؛ فيشترط ألا يكون في الحد الأدنى من هو أصم، وهو مروي عن الشافعية، ثالثها: يرى أنه تنعقد بهم إن لم يكونوا كلهم كذلك، وهو مروي عن الحنابلة.

والصحيح هو قول الجمهور.

الثالث: كيفية فهم الأصم للخطبة:

إذا اجتمع الصم في مسجد من المساجد لحضور صلاة الجمعة؛ يجوز أن يجتمعوا في ناحية من المسجد، ويكون معهم مترجم يترجم لهم الخطبة بالإشارة، أما إذا كان كل من بالمسجد صمًا وكان الخطيب أيضًا أصم؛ فيجوز أن يقيم لهم الخطبة بالإشارة، فإذا لم يستطع الأصم أن يفهم الخطبة لعدم سماعه لها، وعدم وجود المترجم له؛ فله أن ينشغل بالتسبيح والقراءة، ولا يُعدّ هذا من اللغو المنهي عنه؛ لما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب؛ فقد لغوت».

[متفق عليه].

أما إذا انشغل مع أصم آخر بالإشارة؛ فهذا لا يجوز؛ لأنه من اللغو المنهي عنه.

قال ابن رشد في بداية المجتهد ونهاية المقتصد: «والقول الثالث: الفرق بين أن يسمع الخطبة أو لا يسمعها، فإن سمعها أنصت، وإن لم يسمع جاز له أن يسبّح ويتكلم في مسألة من العلم، وبه قال أحمد وعطاء وجماعة، والجمهور على أنه إن تكلم لم تفسد صلاته. اهـ.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

علاج الغفلة

الحلقة الثانية

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد:

تكلمنا في العدد الماضي عن علاج مرض الغفلة، وقلنا: إنه يستلزم من العبد رغبةً صادقة في العلاج، وقبولاً للنصيحة، ومسارعة في العمل النافع للبعد عن الغفلة وآفاتها، مع الاستعانة قبل ذلك كله بالله تبارك وتعالى؛ كي يوفق العبد للبعد عن خطرها وضررها. وذكرنا من علاج الغفلة:

أولاً: تذكر الموت والآخرة.

وثانيًا: طلب العلم النافع المستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والعمل به. وثالثًا: ذكر الله تعالى، وحضور مجالس الذكر.

ونكمل ما بدأناه فنقول وبالله التوفيق:

رابعًا: الصحبة الصالحة

فالصحبة الصالحة، والرفقة الطيبة، يشدون من أزر صاحبهم، ويقوونه ويعينونه كي يتجاوز العقبات؛ لأن المرء ضعيف بنفسه، قوي بإخوانه الصالحين، والرجل الصالح لا ترى منه إلا خيرًا، قال الله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

وعن أبي مُوسَى -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ، لا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَيْتَكَ أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ منه رِيحًا خَبِيثَةً» [البخاري ٢١٠١].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «لا تُصَاحِبْ إِلا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلا تَقِيٌّ» [أبو داود ٤٨٣٢ وحسنه الألباني].

وعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنِ النبي ﷺ قال: «الْمَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أحدكم من يُخَالِلُ». [أبو داود ٤٨٣٣ وحسنه الألباني].

وقال ابن قُدامة المقدسي -رحمه الله- في مختصر منهاج القاصدين: «ينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمسُ خصال:

١- العقل: فهو رأس ماله، ولا خير في صحبة الأحمق؛ لأنه يريد أن ينفعك فيضرك.

٢- حسن الخُلق: فلا بد منه؛ إذ رُبَّ عاقلٍ يغلبه غضبه، أو شهوة فيطيع هواه فلا خير في صحبته.

٣- غير فاسق: لأن الفاسق لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق به، ومن خان أولَ منعمٍ لا يفي لك أبدًا.

٤- غير مبتدع: لأن المبتدع يُخافُ من صحبته؛ لأن في صحبتك له الشر كله، إما سراية البدعة، أو عدم الإنكار عليه، أو تتعلم من بدعته فيحصل لك انتكاسة.

٥- غير حريص على الدنيا: لأن الحرص على المال يفسد الدين بقدر أكبر من الفساد الحاصل من إرسال ذئبين جائعين على غنم، أي يفسد فسادًا بينًا بلا روية، كما جاء في السنة أن النبي ﷺ قال: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه». [الترمذي ٢٣٧٦ وصححه الألباني].

فالصحبة التي ينبغي أن تحرص عليها هي صحبة الصالحين فتستفيد منها؛ حيث إنهم يذكِّرونك إذا نسيت، ويعلمونك ما جهلت، ويساعدونك على ما عجزت عنه، وينشطونك على نوافل العبادة، ويساعدونك على ما قد

تغفل عنه إذا كنت وحدك؛ فالصحبة الصالحة هي مفتاح كل خير، وهي الأمان بعد الله تعالى من الوقوع في مزالق الشهوات والشبهات، قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، فمن توفيق الله للعبد أن يُرزق صحبة صالحة يعينونه على الطاعة، ويحذرونه المعصية.

ويستفاد من صحبة العلماء الخير الكثير، كالاستفادة من علمهم وأخلاقهم، فصحبة أهل العلم خير على خير، فصحبتهم زاد ورفقتهم تشترى، وكذا صحبة أهل الدين؛ لأن من صاحبهم يستفيد من أخلاقهم، ويأمن المفسدة من جهتهم. فإذا كانت الرفقة من شباب متحمس من أهل المعرفة، ومن طلبة العلم، الذين معهم علم وزهد وورع، ومحبة للعبادة، ورغبة في الاستكثار منها، فهؤلاء هم الذين يُستفاد من صحبتهم، وكذا سائر الصفات العشرة.

خامسًا: التوبة والاستغفار

والتوبة: هي طلب محو الذنب، والاستغفار: طلب ستر الذنب، وإن من تاب واستغفر عاد كمن لا ذنب له، كما صح في الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» [قال الألباني في صحيح الترغيب (٣ / ١٢٢): رواه ابن ماجه والطبراني ورواته رواة الصحيح].

ومعنى ذلك أن الله تعالى إذا أحب عبدًا ألهمه التوبة والاستغفار، فلم يُصِرّ على الذنوب، وإنما مدح الله عباده المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٥].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لاَ أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي» [أحمد ١١١٧٨، وصححه الألباني].

وعَنْ أَبِي مُوسَى - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَدا الله بُسْطَانِ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ لِيَتُوبَ بِالنَّهَارِ، وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ لِيَتُوبَ بِاللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا» [ابن أبي شيبة (٣٤٢٠٤) وصححه الألباني في ظلال الجنة].

> الغالب على الخلق أنهم لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله إلا عند إلمام حاجة؛ فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ: اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ» [متفق عليه واللفظ لمسلم]. فالتوبة والاستغفار تجعل العبد يفيق من غفلته، وينصرف عنها؛ فتنكشف عنه الغمة، وتنفرج عنه الغيوم والكربات.

سادسًا: الدعاء والتضرع إلى الله تعالى

الدعاء والتضرع من أشرف أنواع الطاعات، وأفضل العبادات؛ أمر الله تعالى به عباده فضلاً وكرمًا، وتكفل لهم بالإجابة، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان.

عن ثوبان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرد القدر إلا الدعاء». [أحمد ٢٢٤١٣ وحسنه الألباني].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ». [أبو داود ١٤٨١ وصححه الألباني].

والغالب على الخلق أنهم لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله إلا عند إلمام حاجة؛ فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض، وصدق الله ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

> **الدعاء والتضرع إلى الله تعالى يكشف الكرب، ويرفع البلاء، ويلين القلب، وينقي النفس، ويذهب السوء، ويزيد من إيمان العبد، ويرده إلى الحق؛ فتذهب غفلته، وتمحى زلته، وتأتي عافيته**

فالحاجة تلجئ إلى الدعاء، والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة، ويمنع من نسيانه، ويذكر بنعمته وإحسانه. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، ثم الدُّعَاءُ تتحقق به عبادة ربِّ العالمين؛ لأنه يتضمَّن تَعلُّقَ القلبِ بالله تعالى، والإخلاص له، وعدم الالْتِفَات إلى غير الله -عزّ وجلّ- في جَلْبِ النَّفْعِ ودَفْعِ الضُّرِ، فالدعاء والتضرع إلى الله تعالى يكشف الكرب، ويرفع البلاء، ويلين القلب، وينقي النفس، ويذهب السوء، ويزيد من إيمان العبد، ويرده إلى الحق؛ فتذهب غفلته، وتمحى زلته، وتأتي عافيته.

سابعًا: المحافظة على الصلوات الخمس مع الجماعة، والحرص على قيام الليل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ؛ فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ». [متفق عليه].

فلا بد من التخفف من الذنوب التي تثقل كاهل العبد وتقعد به وتورثه الغفلة، فالذنوب تقسّي القلب، وتحرم الإنسان من الخير، وتفوّت عليه النشاط للعبادة، فالصلوات الخمس مع الجماعة عبادة يمحو الله بها الخطيئات، ويهدم ما قبلها من السيئات، ويرفع بها الدرجات ،فعن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «أَلا أَدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ. قال: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ على الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إلى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ؛ فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ». [مسلم: ٦٦٦].

وعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من تَطَهَّرَ في بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إلى بَيْتٍ من بُيُوتِ اللَّهِ؛ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً من فَرَائِضِ اللَّهِ، كانت خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً». [مسلم ٦٦٦].

وعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «أَرَأَيْتُمْ لو أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ منه كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قالوا: لا يَبْقَى من دَرَنِهِ شَيْءٌ. قال: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهَ بِهِنَّ الْخَطَايَا». [متفق عليه].

وعن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «ما من امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا؛ إلا كانت كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا من الذُّنُوبِ ما لم يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ». [مسلم ٢٢٨].

وعن عَمْرُو بن عَبَسَةَ -رضي الله عنه- أَنَّهُ سمع النبي ﷺ يقول: «أَقْرَبُ ما يَكُونُ الرَّبُّ من الْعَبْدِ في جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ في تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ». [الترمذي ٣٥٧٩ وصححه الألباني].

ثامنًا: الزهد في الدنيا

زَهِد فيه وعنه: أعرض عنه، وتركه لاحتقاره، أو لتحرجه منه أو لقلته، وزَهُد في الشيء رغب عنه، ويقال: زهد في الدنيا: ترك حلالها مخافة حسابه، وترك حرامها مخافة عقابه. وقال السعدي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠-٦١]: هذا حض من الله لعباده على الزهد في الدنيا، وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات والأمتعة، والنساء، والبنين، والمآكل، والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة [الدنيا] وزينتها، أي: يتمتع به وقتًا قصيرًا، متاعًا قاصرًا، محشوًا بالمنغصات، ممزوجًا بالغصص.

وقال أيوب السختياني: «الزهد في الدنيا

ثلاثة أشياء أحبها إلى الله وأعلاها عند الله وأعظمها ثوابًا عند الله تعالى: الزهد في عبادة من عُبِدَ دون الله، من كل ملك، وصنم وحجر ووثن. ثم الزهد فيما حرم الله تعالى من الأخذ والعطاء، ثم يقبل علينا فيقول: زهدكم هذا يا معشر القراء فهو والله أخسه عند الله الزهد في حلال الله عز وجل» [حلية الأولياء (٣ / ٧)].

وعن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعديِّ قال: أتى النبي ﷺ رَجُلٌ؛ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي على عَمَلٍ إذا أنا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي الله وَأَحَبَّنِي الناس. فقال رسول اللَّه ﷺ: «ازْهَدْ في الدُّنْيَا يُحِبَّكَ الله، وَازْهَدْ فيمَا في أَيْدِي الناس يُحِبُّوكَ». [ابن ماجه ٤١٠٢ وصححه الألباني].

فالزهد في الدنيا طريق البعد عن الغفلة، والانتباه من الانغماس فيها، والتخلص من خطرها وضررها.

تاسعًا: المداومة على محاسبة النفس

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩]. ويقول تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]، وقال جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]، فالمحاسبة حبس الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات ولومها على ما لا ينبغي من الاعتقاد والقول والفعل.

وأورد السيوطي في الدر المنثور عن عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، قال: «إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه؛ ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديثي نفسي، ولا أراه إلا يعاتبها؛ وإن الفاجر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه».

وقال عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-:

يا نفس إن لم تقتلي تموتي
هذي حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت
إن تفعلي فعلهما هديت
إن تسلمي اليوم فلا تفوتي
أو تبتلي فطالما عوفيت

يريد بقوله: فإن تفعلي فعلهما هُديت: فعل زيد ابن حارثة رضي الله عنه، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانا قُتلا في ذلك اليوم.

وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا». [الترمذي ٢٤٥٩ وقال الألباني: موقوف].

ويروى عن ميمون بن مهران قال: «لا يكون العبد تقيًا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه».

قال ابن القيم: فإذا كان العبد مسئولاً ومحاسبًا على كل شيء حتى على سمعه وبصره وقلبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

ودونك حياة السلف الصالح من الصحابة الأطهار، والتابعين لهم بإحسان، تجدها مليئة بصور من المجاهدة الذاتية لأنفسهم حتى فطموها عن الشر، وأصبحت مطواعة لهم في الخير، مروضة على المسابقة للخيرات والعجلة في إرضاء الرب سبحانه بفعل كل محابِّه، وما يقرب منه.

واعلم أن أعدى عدوٍّ لك هو نفسك التي بين جنبيك وقد خُلقت أمّارةً بالسوء، ميّالةً إلى الشرّ، وقد أُمرْتَ بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، فإن أهملتها جمحت، وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمتها بالتوبيخ، رجونا أن تصير مطمئنةً فلا تغفلنّ عن تذكيرها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتها
وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

فالمحاسبة إيقاظ النفس من غفلتها، وتنبيهها على زلتها، والحرص على عودتها وأوبتها، وحملها على تفريج كربتها، وهي أوسع أبواب نجاتها وسلامتها.

والحمد لله رب العالمين.



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين. أما بعد:

فقد انتهينا في لقائنا السابق مع قصة نبي الله عيسى عليه السلام وهو يدعو قومه إلى توحيد الله وعبادته، وتقواه وطاعة رسوله، قائلاً لهم بعد أن قدَّم لهم الآيات والبراهين الدالة على نبوته ورسالته: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠-٥١].

وهنا وقف بنو إسرائيل منه موقف العداء والكفر، ومالئوا ذوي السلطان الكافر عليه في ذلك الزمان، وقد استشعر عيسى عليه السلام ذلك منهم، وسمعه بأذنه؛ وعندها أعلن فيهم بوضوح: من يتبعني إلى الله، ويبايعني على نصرة دين الله وتبليغ دعوته؟ وهذا ما سجله القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢- ٥٣].

ونَقِف مع هاتين الآيتين الوقفات التالية:

أولاً: الأنصار

١- ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي: استشعر عليه السلام من اليهود الكفر والعدوان والكيد والمكر والخذلان.

٢- قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ إلى الله؟ قال ابن كثير: قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله، ونصر ابن كثير - رحمه الله - هذا القول، ورجحه على ما سواه، ثم عقَّب عليه قائلاً: «والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله، كما كان النبيُّ ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» [أبو داود ٤٧٣٤، والترمذي: ٢٩٢٥٥، وصححه الألباني]؛ حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه وهاجر إليهم».

وهكذا عيسى ابن مريم عليه السلام أعلنها؛

فقامت له طائفة سماها الله «الحواريين»، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي حواريٌّ وحواريّ الزبير» [متفق عليه]؛ فالحواريون هم أنصار الأنبياء، وقد امتنَّ الله على نبيه عيسى بهذه المنَّة، وجعل له حواريين ينصرونه، ويؤازرونه في تبليغ دعوة الله، وقال سبحانه مذكرًا نبيَّه عيسى عليه السلام بهذه النعمة ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١].

الحواريون هم أنصار الأنبياء، وقد امتنَّ الله على نبيه عيسى بهذه المنة، وجعل له حواريين ينصرونه، ويؤازرونه في تبليغ دعوة الله

٣- وقد جاءت آية المائدة في سياق تعداد نعم الله على نبيِّه ورسوله عيسى ابن مريم في يوم القيامة.

وهذا مشابه لتأليف الله تعالى بين قلوب المهاجرين والأنصار حول النبي ﷺ، وقد امتن على نبيه ورسوله محمد بذلك، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢- ٦٣].

٤- وهكذا ألهم الله حواريِّي عيسى الإيمان به سبحانه، والتصديق بالنبي الكريم فأعلنوها صريحة: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ ذلك لأن الإسلام دين الأنبياء جميعًا من لدن آدم عليه السلام مرورًا بإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وانتهاء بخاتم النبيين محمد ﷺ وبأمته التي تسمَّت بهذا الاسم؛ لأنها كذلك خاتمة الأمم.

٥- ولم يكتف الحواريون بإعلان إسلامهم، بل توجهوا إلى الله بخالص الدعاء متوسلين بإيمانهم أن يجعلهم مع الشاهدين (أي مع أمة محمد ﷺ). قاله ابن عباس - رضي الله عنهما -.

وقال ابن كثير عنه: «إسناده جيد»، فالله أعلم.

ثانيًا: قصة المائدة من سورة المائدة

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥].

هذه قصة المائدة التي طلبها الحواريون من عيسى عليه السلام، كما جاءت في السورة التي تسمَّت باسمها في القرآن الكريم، وفي ذلك دلالة على أهمية هذا الحدث، ولذلك أوردناه ضمن حديثنا اليوم عن الحواريين، وسوف نناقش هذا الموضوع من عدة وجوه:

الأول: كيف يطلب الحواريون - وهم أخلص الناس إيمانًا - من نبيهم عيسى عليه السلام أن يطلب من ربهم إنزال مائدة عليها أطايب الطعام؟ ألا يدل ذلك على شك منهم في قدرة الله؟

قد يبدو هذا للوهلة الأولى، نعم. ويؤكده قول عيسى عليه السلام: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي صادقي الإيمان.

لكنهم عندما قدموا تبريرًا معقولاً لطلبهم في قولهم: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾.. إلى آخر ما قالوه؛ هنالك توجه عيسى عليه السلام إلى ربه؛ ليسأله إنزال المائدة، وإلى هذا الحد يكون الأمر قد بدا مقبولاً، وإن كان في النفوس شيء منه؛ فنذهب مع الإمام القرطبي حيث يجيبنا على هذا الإشكال إجابة شافية بإذن الله - فيقول - رحمه الله - عن القراءة المشهورة: «هل يستطيع ربُّك» المضارع بالياء مع رفع باء (ربُّك) أن هذا لم يكن شكًّا منهم في استطاعة الله

سبحانه وتعالى؛ لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي، وقد علمت أنه يستطيع، فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبني أم لا؟

وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر؛ فأرادوا علم معاينة كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]. اهـ.

هذا باختصار بعض ما أورده الإمام القرطبي على القراءة المشهورة بالياء، أما على القراءة الأخرى التي سماها قراءة (التاء) «هَلْ تَسْتَطِيعُ ربَّك» أي: هل تستطيع أن تدعو ربك؛ فإن الإشكال يزول بالكلية ويصير لا إشكال.

وأيًّا ما كان الأمر؛ فإن عيسى عليه السلام دعا ربه، وربّه سبحانه استجاب له، ونزلت المائدة عليها أصنافٌ من الطعام اختلفوا في تعيينها وتعدادها؛ لكني أقول: ما ظنك بمائدة يُنزلها الرحمن وتحملها الملائكة على نبيٍّ من أولي العزم وحوارييه؟ اللهم ارزقنا من فضلك واكفنا بحلالك عن حرامك وأغننا بفضلك عمن سواك. فمهما قيل في وصفها تبقى حقيقتها أعظم من كل وصف.

الوجه الثاني: اختلف السلف في نزول المائدة هل أنزلها الله فعلاً أم أنهم خافوا لما قال الله لنبيه عيسى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. فلم ينزلها عليهم.

ولست أدري لم الخلاف؟ وقد سأل عيسى ربَّه، وسؤال الأنبياء لا يُرَدّ، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، فكيف بعد ذلك يكون مجال للخلاف، وعمومًا جمهور السلف على نزولها، وهذا هو الحق، والله أعلم.

الوجه الثالث: قال الشيخ ابن باز رحمه الله معلقًا على هذه القصة: «ففي هذا بيان شيء من قدرة الله جل وعلا، وأنه سبحانه في العلو؛ لأن الإنزال يكون من الأعلى إلى الأسفل؛ فإنزال المائدة وطلب إنزالها، كل ذلك دليل على أن القوم قد عرفوا أن ربهم في العلو، فهم أعرف بالله وأعلم به من الجهمية وأضرابهم ممن أنكر العلو، فالله سبحانه فوق السماوات، وفوق جميع الخلائق، وفوق العرش قد استوى عليه استواءً يليق بجلاله لا يشابه خلقه في شيء من صفاته جل وعلا». [انتهى مختصرًا من مجموع فتاوى ابن باز].

> الحواريون أعرف بالله وأعلم به من الجهمية وأضرابهم ممن أنكر العلو، فالله سبحانه فوق السماوات، وفوق جميع الخلائق، وفوق العرش قد استوى عليه استواءً يليق بجلاله لا يشابه خلقه في شيء من صفاته جل وعلا

الوجه الرابع:

هل قصة المائدة هي المذكورة في الأناجيل تحت مسمى العشاء الأخير أو (أفخاريستيا) باليونانية يعني (الشكر أو المسرّة)، وقد تم اختزالها وتحريفها بتناول رقيقة خبز وشرب خمر عند انتهاء الصلاة؛ تذكيرًا بالعشاء الأخير للمسيح وحوارييه عليهم السلام. الله أعلم.

وقد ذكر ابن كثير أن ورود القصة في الأناجيل التي بين أيديهم اليوم أمر مختلف فيه، وأرجع علم ذلك إلى الله سبحانه.

الوجه الخامس: بقي أن نقول: إن هناك رأيًا شاذًا لا يُعتد به؛ يقول صاحبه: إن المائدة لم تنزل، وستنزل على عيسى بعد نزوله آخر الزمان، ويحدد لذلك ميقاتًا هو ١٤٤٤هـ؛ مستنتجًا ذلك من حسابات وهمية يضرب عدد آيات سورة المائدة في آيات سورة الفاتحة !! ولست أدري ما العلاقة بينهما؟!!

ونحن نؤمن بما أنزله الله في كتابه على لسان رسوله، وبما أجمع عليه سلف الأمة ممن يُعتد بقولهم.

ونسأل الله أن يحيينا على ذلك، وأن يميتنا على ذلك، وإلى لقاء أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه. والحمد لله رب العالمين.

قطوف

من تراث الشيخ/ عبدالرحمن الوكيل

- رحمه الله -

أعدها/ فتحي أمين عثمان

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

القطب الغوث (١-٣)

من الخرافات المنتشرة بين جموع المتصوفة خرافة القطب الغوث، وقد نشأت فيهم نتيجة ادعاء الصوفية بأن لكل نص ديني ظاهرًا وباطنًا، ولهذا كان الدين في نظر الصوفية «شريعة» و«حقيقة». فأما الشريعة فهي تلك التي بيَّنها الرسول صلى الله عليه وسلم، وعمل بما توجيه، وقام عليها بعده صفوة أصحابه، وأقاموها قولاً وعملاً واعتقادًا وسلوكًا وخُلُقًا، وأما الحقيقة كما تزعم الصوفية - فهي تلك التي كتمها الرسول صلى الله عليه وسلم - وحاشاه - أن يكتم شيئًا عن أمته، لهم فيه خير وصلاح.

كما تدعي الصوفية أن الداعين إلى الشريعة، هم الرسل، وأن الداعين إلى الحقيقة هم الأقطاب.

وحيث إنَّ الشيخ عبد الرحمن الوكيل -رحمه الله- كان من أبرز الدارسين الفاهمين والفاقهين للجو الفكري عند الصوفية، وما يفرزه من قضايا تتمثل في فكرة القطبانية، والمملكة الباطنية والديوان، فقد وفَّقه الله لأن يُجلّي ذلك الموضوع، ويلقي عليه الضوء من خلال كتابه «هذه هي الصوفية»، وما نشره بعد ذلك من مقالات في «مجلة الهدي النبوي» تحت عنوان «المملكة الباطنية»، والتي تميزت كتابته فيها بالتركيز والترتيب والمنهجية، مما يدل على عمق الفكر عنده، ووضوح الرؤية لديه فيما يكتب، ولعلها من أواخر ما كتب عن التصوف، وكانت كلها تناقش ما تدعيه الصوفية عن: القطب القديم، والقطب الحادث، وحقيقة القطبانية - كما تحدث عنها القاشاني - وعلاقة القطبية، وعوالم القطب، وأسماء القطب، ومكان القطب وذواته، ومدة القطبية، وأعوان القطب، وهم: «الإمامان، الأوتاد، الأبدال، النجباء».

ولا يسعنا الآن إلا أن نسوق لك طرفًا مما كتبه عن هذه القضايا، وأولها القطب:

أسطورة خرافية تنزع إلى تجريد الله من الربوبية والإلهية، وخلعها على وَهْم باطل سُمّي في الفلسفة «العقل الأول» وفي الصوفية «القطب».

وقد نُقِلَ عن جامع الأصول للكمشخانلي: أن القطب: «هو أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية، أو الواحد الذي هو موضع نظر الله في الأرض في كل زمان، عليه تدور أحوال الخلق، وهو يسري في الكون، وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، ويُفيضُ روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وقد يسمى «الغوث» باعتبار التجاء الملهوف إليه». [«هذه هي الصوفية» ص١٥١-١٥٢].

القطب القديم والقطب الحادث

والقطب في عقيدة القوم كما يشرحه الكاشاني نوعان:

١- قطب قديم أو معنوي.

٢- وقطب حادث أو حسي.

والأول يكون قطبًا بالنسبة إلى جميع المخلوقات في عالم الغيب والشهادة، ولا يستخلف بدلاً من الأبدال، ولا يقوم مقامه أحد من الخلائق، وهو قطب من الأقطاب المتعاقبة في عالم الشهادة، لا يسبقه قطب، ولا يخلفه آخر، أو هو كما يقول الكاشاني: «عين اللَّه، وعين العالم، الإنسان الكامل المتحقق بحقيقة البرزخية الكبرى»، وهذا معناه أن قطب الأقطاب قديم في ذاته، ويظهر في صور الأقطاب المحدثين.

أما القطب الحادث، فهو أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية، «أي تحققت وحدته مع الذات»، ويعتبر قطبًا بالنسبة إلى ما في عالم الشهادة من المخلوقات يستخلف بدلاً منه عند موته من أقرب الأبدال منه، فحينئذ يقوم مقامه بدل هو أكمل الأبدال. [كشف الوجوه الغر، للكاشاني: ١٣/٢].

وهذا التقسيم يقوم على أساس من إيمان الصوفية بوحدة الوجود، ولنأت بالضلالة من جذورها لنفهم مرادهم من هذا.

يرى الصوفية أن اللَّه كان وجودًا مطلقًا أو عماء مُبْهَمًا مجردًا عن الأسماء والصفات، وقد أراد هذا الوجود أن يتعين، ليعرف نفسه، فتعين في الحقيقة المحمدية، هذه الحقيقة المحمدية هي القطب القديم الذي يتحدث عنه الكاشاني.

وكان للحقيقة المحمدية تعينات وتنزلات وتجسدات، والإنسان الذي تتجسد فيه الحقيقة المحمدية بكل صفاتها وأسمائها التي هي صفات الله وأسماؤه؛ يكون هو القطب لنسبته إلى ما في عالم الشهادة، وهذا هو القطب الحادث الحسي، وهذا القطب الحادث هو في حقيقته القطب القديم، غير أنه

سُمِّي حادثًا باعتبار جسده الذي تعينت فيه الحقيقة المحمدية التي هي القطب القديم، وهذا القطب الحادث هو في حقيقته أيضًا الذات الإلهية أليست الحقيقة المحمدية المتعينة في هذا القطب الحادث هي الحقيقة الإلهية؟ !

يقول الشعراني في اليواقيت نقلاً عن ابن عربي: «وأما القطب الواحد المد لجميع الأنبياء والرسل والأقطاب من حين المنشأ الإنساني إلى يوم القيامة فهو روح محمد». [اليواقيت والجواهر ٢/٨٣].

أما الأقطاب الحسية المتعاقبة، فهي تعينات للقطب القديم.

ويقول الجيلي: «الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له تنوع في ملابس، ويظهر في كنائس، فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي له: محمد، وكنيته أبو القاسم، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخرى أسامٍ، وله في كل زمان اسم يليق بلباسه في ذلك الزمان».

قال الشبلي لتلميذه: اشهد أني رسول الله. فقال: أشهد أنك رسول الله. [الإنسان الكامل: ٢/٥].

فالإنسان الكامل هو قطب الأقطاب، ولا يوجد عند الجيلي قطبٌ، وقطبُ أقطاب، بل كل إنسان كامل -وهو الذي تتعين فيه الحقيقة المحمدية- هو قطب أقطاب، ويفيد قوله: تنوع في ملابس، أن قطب الأقطاب يظهر في صور مختلفة، ولكنه واحد في حقيقته، مختلف في صوره. وقوله: يظهر في كنائس يفيد أن هذا القطب قد يكون قسيسًا، أو أسقفًا نصرانيًا أو حبرًا يهوديًا، وهذه إشارة منه إلى وحدة الأديان، ومن الإنسان الكامل؟ إنه الله عند الجيلي، فهو يقول: «والله هو الولي يعني الإنسان الكامل».

ويقول عنه في مكان آخر: «عليه يدور أمر الوجود، وبه يكون الركوع والسجود، وبه يحفظ الله العالم، وهو المعبر عنه بالمهدي وبالخاتم». [الإنسان الكامل: ١/٥١].

وقد زعم ابن الفارض أنه هو القطب القديم، فما قبله قطب، ولا بعده قطب؛ لأنه هو الأول والآخر، وهاك ما يقول في تائيته الكبرى:

فبي دارت الأفلاك فاعجب لقطبها المحـ ـيط بـهـا والـقـطـب مـركـز نـقـطـة

ولا قـطـب قـبـلـي عن ثلاث خـلـفـتـه وقـطـبـيـة الأوتـاد عـنـي بـدلـيـة

يـقـول: إنه الـوجـود الـذي به دارت الأفلاك، وإنه القطب القديم الذي لم يسبقه قطب، ولا يأتي بعده قطب، أما الأقطاب الحادثة فمسبوقة بأقطاب، ومخلوفة بأقطاب، فكلما انقضى واحد اختير بدلاً منه قطب آخر من ثلاثة الأبدال، أما هو؛ فهو القطب الدائم السرمدي المد لجميع الأقطاب أزلاً وأبدًا، فهو في آنٍ دائم.

علم القطب: يعلم «علم ما قبل وجود الكون، وما وراءه، ولا نهاية له، ويشهد الذات بعين الذات، ويعلم علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات، وهي الأسماء العالية، ويخصص بأسرار دائرة الإحاطة، وجميع الفيوض الإلهية».

ويقول الجيلي عن علمه: «علم العوالم بأجمعها على ما هي عليه من تعاريفها من المبدأ إلى المعاد».

وعلم كل شيء كيف كان، وكيف هو كائن، وكيف يكون، وعلم ما لم يكن، ولِمَ لا يكون ما لم يكن، ولو كان ما لم يكن كيف كان يكون. يعلم كل ذلك علمًا أصليًا حكميًا كشفيًا ذوقيًا من ذواته لسريانه في المعلومات علمًا إجماليًا تفصيليًا كليًا جزئيًا.

هذا علم من تجلى الله عليه بصفة العلم، فما بالك بالقطب؟!!

وتدبر قول الله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

فكيف يفتري المبطلون أن قطبهم يعلم غيب السماوات والأرض، بل يعلم كل ما كان قبل أن يخلق الله السماوات والأرض؟

حقيقة القطبانية أو خلافته عن الله

يقول التيجاني الكبير: «والقطبانية هي الخلافة العظمى عن الحق تبارك وتعالى مطلقًا في جميع الوجود جملة وتفصيلاً؛ حيثما كان الرب إلهًا كان هو خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه في كل من عليه ألوهية لله تعالى، ثم قيامه بالبرزخية العظمى بين الحق والخلق، فلا يصل إلى الخلق شيء كائنًا ما كان من الحق إلا بحكم القطب، وتوليه نيابة عن الحق في ذلك، وتوصيله كل قسمة إلى محلها، ثم قيامه في الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرات الوجود جملة وتفصيلاً، فترى الكون كله أشباحًا لا حركة لها، وإنما هو الروح القائم فيها جملة وتفصيلاً، وقيامه فيها في أرواحها وأشباحها، ثم تصرفه في مراتب الأولياء، فيذوق مختلفات أذواقهم، فلا تكون مرتبة في الوجود للعارفين والأولياء خارجة عن ذوقه، فهو المتصرف في جميعها، والمد لأربابها، وله الاختصاص بالسر المكتوم الذي لا مطمع لأحد في دركه».

وبعد أن وقفتك على فكرة القطب، وعلم القطب، وحقيقة القطبانية عند كبار الصوفية، كما جاءت في مجلة الهدي النبوي، أسوق لك ما جاء في كتاب «هذه هي الصوفية» عن خصوصية القطب وأعوانه:

خصوصية القطب

«قطب الأقطاب في كل وقت لا تقع بينه وبين الرسول حجابية أصلاً، وحيثما جال رسول الله من حضرة الغيب، ومن حضرة الشهادة، فعين قطب الأقطاب متمكنة من النظر إليه، لا يحتجب عنه في كل لحظة من اللحظات». وحسبك هذا من تلك الأسطورة التي ألَّهتها الصوفية، وجعلت منها ربًّا أكبر يُعْبَد، ويُخْشَى، ويُرْهَب !

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سارع أخي المسلم وأختي المسلمة

بالمشاركة بجزء من مالك ومن الزكوات أو الصدقات لنشر التوحيد من خلال المشاركة في الأعمال التالية:

- طباعة كتيب يوزع مع مجلة التوحيد مجانا تتكلف النسخة خمسة وسبعين قرشا .. يطبع من كل كتيب مائة وخمسون ألف نسخة.
- نشر تراث الجماعة من خلال طبع المجلة وتجليد أعداد السنة في مجلد واحد وذلك لعمل كرتونة كاملة ٣٨ سنة من المجلة.
- دعم مشروع المليون نسخة من مجلة التوحيد - نسخة من المجلة لكل خطيب من خطباء الأوقاف والأزهر تصله على عنوانه.

نحن بانتظاركم .. يمكنكم المشاركة ودعم ذلك بعمل حوالة أو شيك مصرفي على بنك فيصل الإسلامي.

.. فرع القاهرة حساب رقم ١٩١٥٩٠ باسم مجلة التوحيد.


١٤٣٠
مجلدات التوحيد مكتبة علمية .. تحتاج إليها
المكتبة الإسلامية
المكتبة العامة
مكتبتك الخاصة
الأسرة المسلمة
38 عامًا من شروح العقيدة والشريعة بـ ٧٠٠ جنيه فقط